العدد الممتاز

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

عدد ممتاز

العدد ١٩٦ — ٥ ابريل سنة ١٩٣٧ — السنة الخامسة

5 me Année, No. 196

Lundi - 5 - 4 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

العـــدد ١٩٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٥٦ — ٥ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

٥٢١	العام الهجرى	: احمد حسن الزيات
٥٢٣	فى غار حراء	: الأستاذ أحمد أمين
٥٢٥	نجم احمد !	: الأستاذ توفيق الحكيم
٥٢٧	الاسلام بعد ١٣٥٥ سنة . .	: الدكتور عبد الوهاب عزام
٥٢٩	العلائق بين مصر وبيزنطية .	: الأستاذ محمد عبد الله عنان
٥٣٢	ليتنى كنت أدرى ! (قصيدة)	الدكتور محمد عوض محمد
٥٣٢	صوت الإله ! «	
٥٣٣	الذى نريده	: الأستاذ عباس محمود العقاد
٥٣٥	الجزيرة والتاريخ الاسلامى .	: الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
٥٣٧	معنى الهجرة	: الأستاذ على الطنطاوى
٥٤٠	سلاميش	: الأستاذ محمد فريد أبو حديد
٥٤٣	نسية	: الأستاذ ابراهيم مصطفى
٥٤٤	من مواقف العروبة . . .	: الأستاذ محمد سعيد العريان
٥٤٧	بين حراء . . : وعرفات .	: الأستاذ عبد المنعم خلاف
٥٤٩	الخلود	: الدكتور ابراهيم بيومى مدكور
٥٥٢	نتائج العبقرية المنسية . . .	: الأستاذ قدرى حافظ طوقان
٥٥٥	تصحيح نص عربى قديم .	: الأستاذ عبد القادر المغربى
٥٥٨	نهضة العلوم الطبية عند العرب	: الدكتور زكي على
٥٦٢	الفداء (قصيدة)	: الأستاذ أحمد الطرابلسى
٥٦٦	علم التاريخ عند العرب . . .	: الأستاذ عبد الحميد العبادى
٥٧٠	التصوف الفلسفى فى الاسلام	: الدكتور ابو العلا عفيفى
٥٧٥	صديق من صنوف الأعداء	: الأستاذ أمين الخولى
٥٧٧	الجيش والبحرية فى العصر العباسى الاول	الدكتور حسن ابراهيم حسن
٥٨٠	تبصرة وذكرى	: الأستاذ محمد أحمد الغمراوى
٥٨٣	غزوة بدر (قصيدة) . .	: الأستاذ ابراهيم مأمون
٥٨٤	الشعر والنثر فى الأدبين العربى والانجليزي	الأستاذ فخرى أبو السعود
٥٨٧	حمامتان تتناجيان	: الأستاذ محمود غنيم
٥٩١	نفحة شرقية فى أدب غربى	: الأستاذ عبد الرحمن صدقى
٥٩٥	علوم القدماء عند العرب .	: الدكتور يوسف شخت

العام الهجرى

عام الاسلام والسلام

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنفى الخبث وتطرح الغثاء ، وتركم الأحداث ، وتزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ؛ وابن آدم الفانى محمول على غواربها الزُّعن ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وتُرجع بعضه إلى العُباب واللج ! ومن يرجع فسوف يعود ؛ ومن عاد فسوف لا يرجع !

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة ، فيلفظ القشر ، ويحفظ اللباب ، ويمحق أكدار الوجود بالعدم ،

ويُعفِّى حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارثَّ من ديباجة العيش بأفواف الربيع ؛ وابن آدم فى يد القدر المصرِّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، و بعضه يقطع السلام والوئام والحب ، و بين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هـذا الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الأتىُّ فلا يركد ، ثم لا ينسحق بينهما إلا هذا الغبى الذى سلط نفسه على نفسه !

* * *

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم ؛ إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، و بلغت رسالة الحق ، وحملت أمانة العلم . هذا تاريخنا ، تتألق أيامه الغرُّ فى ظلام الماضى ، كما تتألق الكواكب الزهر فى حَلَك الليل . أرشدْنا الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فعز ، وعلمنا الجاهل فتعلم ؛ ثم مكنا فى أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير ، فقويت فى كل نفس ، وازدهرت فى كل جنس ، وانبعثت فى كل دين ، وانتشرت فى كل أفق ؛ وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ؛ لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، و إنما أوحاها الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاما بنظام ، وينقذ إنسانا بإنسان

فلما أدركنا ضعف المخلوق ونقص البشر ، فدحتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم ؛ ثم صحونا اليوم نمسح الكرى عن الجفون ، وننفض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم يعصف به سُعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ؛ واذا الذين الشرق يقلبه المزاج الغربى إلى كَلَب وغَلَب : فعبقرية موسى رِباً ودسيسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ واذا رجل لم تنبته صحراء العروبة ، ولم تنفحه عطور الشرق ، يطغيه الحديد ويبطره العديد ، فيقول وهو يحطم الصليب فى الحبشة : أنا حامى الاسلام !

وأذلُّ الاسلام اذا لم يعزه أهله ! لا ياسيدى ! إن الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ؛ ولا يزال كتابه فى أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة : والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ؛ أما قوة الأساطيل على الماء وفى الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لا تكون إلا دخاناً فى السماء ، وحطاماً على الأرض !.

* * *

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام فى الدنيا والسلام فى العالم . والاسلام – دستور الديمقراطية الصحيحة ، والاشتراكية المنظمة ، والاخوة الشاملة – يبسط يده لكل يد تدفع الانسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو . وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه فى مشرق نوره ، ويخفتوه فى مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر فى الظلام ، و يسلبوا الذخائر فى الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه . فان نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس ؛ وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق ؛ وإن سلطانه من العدل ، وسيبقى ما بقى الكون . فاذا انشقت الأرض ، وانفطرت السماء ، وانكدرت الشمس ، عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه !

لقد أصابوا أخيرا فخطبوا وده وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجها لوجه . وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعدا ، وأن العرب أوفى ذمة . ولعل هذه التجربة القريبة ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء فى فلسطين ، و يعيش هؤلاء حلفاء فى المغرب

إن الاسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة فهو سِلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ؛ أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة ، إن قطعت قبلُ بالأمس فلن تقطع بعدُ اليوم .

احمد حسن الزيات

في غار حراء

للأستاذ أحمد أمين

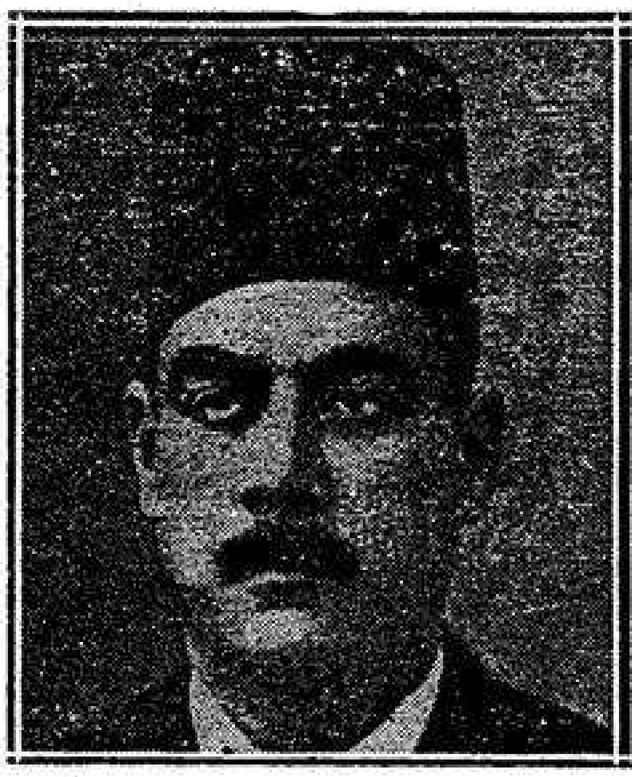

في غار حراء – وهو غار يقرب من ثلاثة أمتار في مترين في قمة جبل على يسار السالك من مكة إلى عرفة – كان محمد وهو في سن الأربعين قبيل الرسالة يتحنث

كان محمد في هذه الأيام يألف العزلة « لم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده »

وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضي شهراً مجاوراً في غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر؟ وما الذي كان يطلب؟ وما هذه الحالة النفسية الجديدة التي استولت عليه؟ وما الذي جعله يهرب من الناس وقد كان بهم أنيساً؟ يسعد بالوحدة، ويسعى إلى العزلة، ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره؟ وما الذي جعله يختار قمة جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه في التفكير من غير أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ماهذه الأفكار التي كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير، ولعله كان يود أن يبقى كذلك أشهراً لولا واجب أهله وواجب عشيرته؟

ولكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة؟ وإذا سألناها فهل في استطاعتنا أن نجيب عنها؟

هل في استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف؟ وهل في مكنة من لا يحسن الرياضة أن يتخيل مايفكر فيه الرياضي؟ وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان؟

ولكن ماحيلة الانسان وقد خلق طموحا إلى أقصى حد وأبعد غاية، لم يقنع في باب المعرفة بشيء، لم يقنع بالأرض ففكر في السماء، ولم يقنع بالظاهر ففكر في الحقائق، بل لم يقنع بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله، وهيهات هيهات!

* * *

أكبر الظن أن « محمداً » في هذه الفترة، وعلى الأخص في غار حراء كان في حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله « ووجدك ضالا فهدى »

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا إيمانهم ولا أخلاقهم؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمي ومظاهره، فلم يعجبه شيء من ذلك. لقد رآهم يعيشون كما يعيش السمك يأكل بعضه بعضاً، أو كما تعيش الذئاب والشياه في حظيرة واحدة

رحماك الله! ما هذه الحيرة الشاملة؟ لا البداوة لسذاجتها ونظامها أعجبته، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبته. لم يعجبه ما رأى من وثنية، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية. فأين الحق؟

لقد اطمأن إلى شيء واحد وهو أن كل مارأى ضلال؛ وحيره شيء واحد وهو سؤاله أين الهُدَى

حالة نفسية إذا تملكت نفسا مرهفة وشعورا دقيقا ملكت نفسه وغمرت قلبه؛ فخلا له أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه، ووجد فيها مفتاحا لحيرته واتجاها لهدايته فبالغ فيها حتى بلغت الشهر!

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضنُون نفسه فليهرب منهم، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها ورونقها ليحيي نفسه فليطمئن إليه. يتعاقب عليه في عزلة الليل والنهار فيجد في كلٍّ غذاء نفسه: هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه، وسمائه

ونجومه ، والعالم حوله كله نائم ، وهو يناغى النجم ، ويشاطره الاضطراب والحيرة ، وهذا النهار - فى أعلى الجبل أيضا - يشرف منه على العالم من تحته ، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزوًا مشوبا برحمة ، واستخفافا ممزوجا بعطف

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد فى غار حراء .

لقد عرف الباطل ، ويريد أن يعرف الحق ؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ؛ ولم يحب ما عليه الناس ، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغى أن يكون عليه الناس .

هذا الظلام فاين النور ؟ وهذا العمى فاين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون ، فاين ما يجب أن يكون ؟

* * *

لقد طلب الحق - فى غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه ، واستعدت روحه ، وكملت مشاعره ، وتوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهاصا لليقين ، وضلاله إرهاصا للهدى

لم يطلب الحق من طريق الشعر ؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال ، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ، والشاعر يغنى لنفسه - أولا - ولا باس أن يسمع الناس ، والشاعر يعيش فى جو خيالى يخلقه بنفسه لنفسه ، وليس هذا من النبوة فى قليل ولا كثير . ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما عبد المنطق ، عبد الألفاظ ، عبد الكتب ، عبد النصوص ؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ؛ ولكل إنسان عقله ، ولكل إنسان تفكيره ، ولكل إنسان منطقه وقضاياه

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله ، وأرفع من ذلك كله : طلبه من طريق القلب ، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا ، فاعلن أنه أمى وفخر بأميته ، لأن القلب فوق اللغة ، وفوق الكتابة والقراءة ، وفوق العلم ، وفوق المنطق ؛ وهو القدر المشترك بين الناس ، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس ، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان

من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب ، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان ، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه ، وحيث يتصل هو وهى بربها وربه

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ، لا اتجاه الشعراء والعلماء ، وتهيأ للأمر العظيم ، فلمعت فى قلبه الشرارة الالهية ، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق

لقد أضاءت له هذه الشرارة الالهية كل شىء ، وكانت رسالته من جنس هدايته ؛ فرسالته أن يبعث الحياة فى القلب ، ويبعث الضوء إلى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس ، يشترك فى الاهتداء به العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، والفيلسوف والعامى ، على اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء

وليست العقول مسايرة فى الرقى والانحطاط للقلوب ، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل ، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص ، وأسلمت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان

° ° °

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرا ، ومحمد بشرا رسولا . لقد صعد إليه إنسانا حائرا ، وهبط منه إنسانا نبيا ، مهتديا مطمئنا . صعد شاكا ، وهبط مؤمنا . لمع فى قلبه النور الإلهى فاذا كل شىء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره

نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يُحيوا قلبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله فى كل أثر من آثاره

° ° °

أى شهر كان هذا الشهر ؟ لو وزن به الزمان لوزنه ، وأى مكان غار حراء ؟ لو فاضل كل مكان لفضله

أحمد أمين

نجم أحمـــد !

للأستاذ توفيق الحكيم

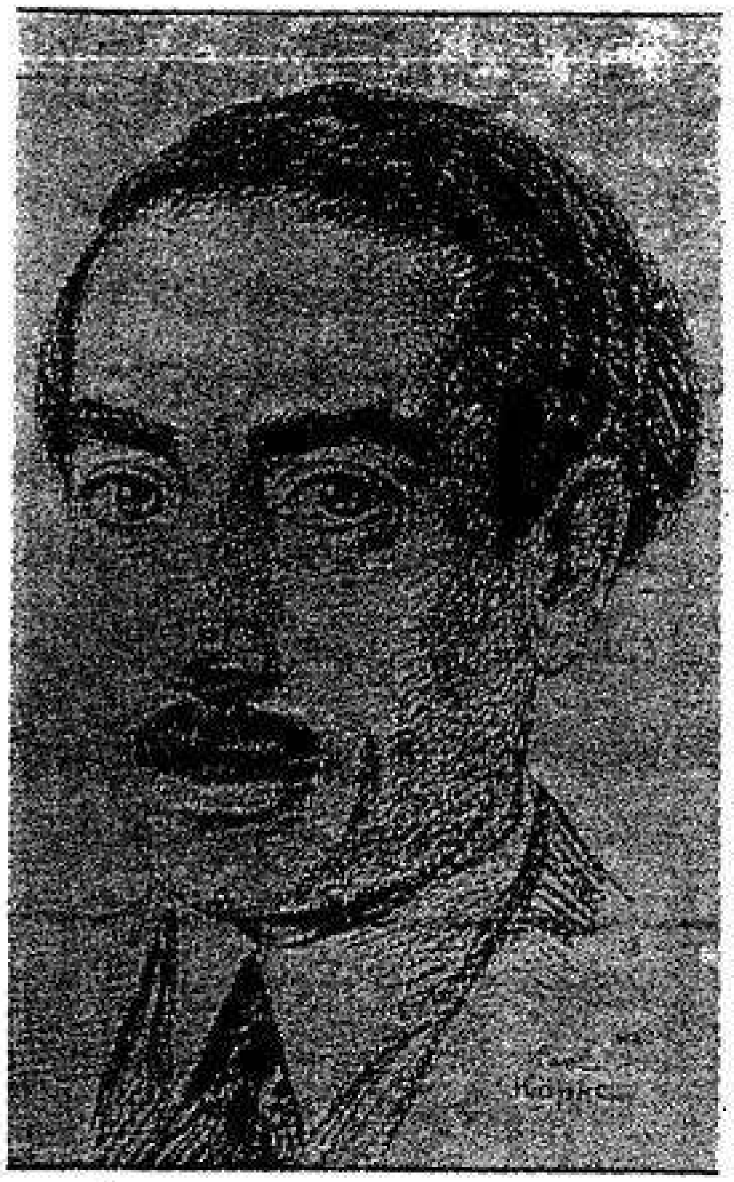

وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظرا الى السماء يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبى فى صيحة مدوية : طلع الليلة نجم أحمد ! عجبا من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نورا من بداية الكون لو أن للكون بداية ، الى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية . نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى . انه موجود

إذن ما الاسلام ؟ وكيف ظهر الاسلام بظهور محمد ، والمسيحية بظهور المسيح ، واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الاسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء باسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛ إنما المفاضلة فى الأثواب

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شان الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى اتخاذ «القالب» الذى أفرغ فيه «موضوع» النبوة ؟ إن أجيب على كل هذا بالإيجاب فان التبعة فى «أسلوب» الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن «الحق» مسئولية ملقاة على «شخصيته» ، التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ؛ وعلى قدر «الشخصية» ، ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فانى أستطيع القول إن النبى أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل انه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبى العربى ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبى لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذى قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله . وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحى يهديه السبيل ، يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل فى معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل انه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر . والنبى الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الاسلام ظاهرة بين سائر الأديان . فهو

دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيما . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة . بل إن « الفوضى » إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ؛ بل ان كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للانسان والأشياء مخالفة لله ؛ وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام فى الأفصاح عن « الحق » واضحاً جلياً ؛ لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شيء . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول . فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط . وهل أبسط من الإسلام شريعة وهى لا تعرف « رجال دين » ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطي متاع « الدنيا » ؟ إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلما « للدنيا » لا « الدنيا » سلما « للدين » قد طردهم الإسلام بعيدا عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادىء البسيطة المستقيمة التى لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم . إذا تم ذلك للإسلام فى هذا العصر فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون فى كل حول صيحة ذلك اليهودى :

« لقد طلع نجم أحمد ! »

توفيق الحكيم

ظهر كتاب

الحاكم بأمر الله

وأسرار الدعوة الفاطميــة

بقلم محمد عبد الله عنان

مؤلف مصر الاسلامية ومواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام وابن خلدون وديوان التحقيق وغيرها

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسى ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشاً والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بعنوانه بشارع المامي نمرة ٢١
ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدابغ
وسائر المكاتب الاخرى

الاســـلام

بعد ١٣٥٥ سنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

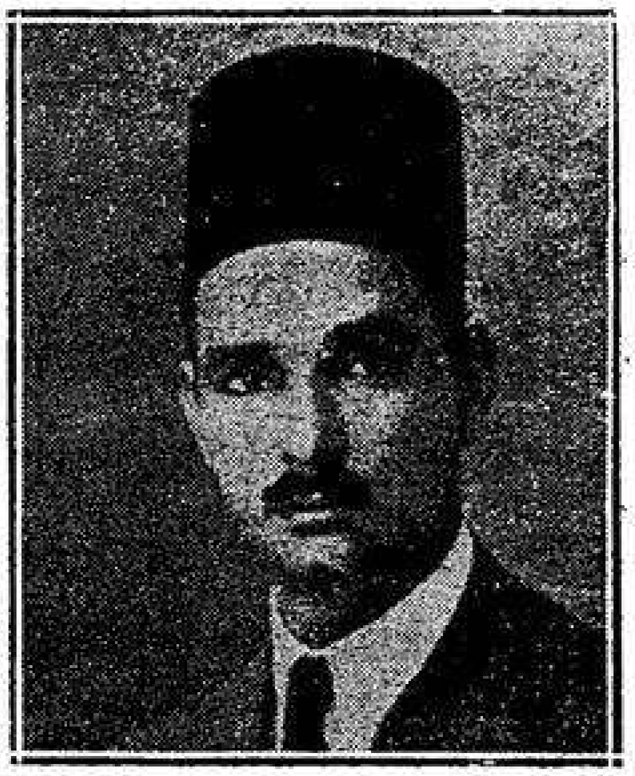

مضت خمسة وخمسون وثلاثمائة وألف عام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .طوى التاريخ خمسا وخمسين وثلاثمائة والف مرحلة منذ خرج محمد وأصحابه يحملون دعوة التوحيد والأخوة ، وكلمة الحق والعدل والحرية — ركم الزمان على عام الهجرة أربعة عشر قرنا ونصفا وما زال يخرق الحجب نوره ، ويلوح من خلال الأجيال سناه .

مضت أربعة عشر قرنا فى جزر التاريخ ومدّه ، وغيَّر الدهر وخطوبه . قامت دول وزالت دول ، وقويت أمم وضعفت أمم ، وحيت مذاهب وماتت مذاهب ، والأرض ترجف باعتراك الانسانية واحتراب الأديان ، وتدوى بالآراء تتصادم ،والأفكار تتقاتل ، ومن وراء هذا خُلق يغلب خُلقا ، وسنّة تُميت سنة ، وآية تنسخ آية ، وأثر يبقى على أثر .

فأين الاسلام اليوم من مُبتدئه ؟ وأين بلغَ المسلمون بعد أربعة عشر قرنا ؟

قال كاتب أوربى منذ سنتين إن دعوة الاسلام قد انتهت ، وإن الإسلام قد وهن ، ولم تبق فيه قوة تحرّك الأمم وتسير الأجيال .

أحق أن الاسلام قد انتهت دعوته ، ودرست آياته ، ولم تبق إلا أسماء وأوهام ورسوم وأعلام ؟ هل الاسلام اليوم لا تنبض به القلوب ، ولا تشتق به العزائم ، ولا يقيم المثل العليا للعمل فى هذه الحياة ، أصار الإسلام تاريخا دابراً ، وانقلب مجداً ماضيا ؟ هل طفئت النار ، وأقوت الديار ؟

ما هى دعوة الاسلام ؟ دعوة ذات شعب تتناول العقائد والأعمال ،وتهيمن على العقل والقلب ، وتحيط بالجماعة من أقطارها ، وتشمل الأمم جميعها ، ولكنها فى أصولها ترجع إلى أمرين : التوحيد — توحيد الله وتوحيد النفس بتخليتها من الأوهام المتنازعة والخرافات المتهافتة وإقامتها على طريق بينة لا حيرة فيها ولا ضلال ؛ ثم توحيد الأفراد فى الجماعة بالعدل الشامل والتسوية التامة ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، لا عبد ولا حر ، ولا سائد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضيع ؛ ثم توحيد الجماعات فلا شرقى ولا غربىّ ، ولا عربىّ ولا عجمى . والأمر الثانى : العمل الصالح : أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير ، إلى العمل لاقامة الحق وهدم الباطل ، ونشر العدل ومحو الجور — أن تمتلىء القلوب نارا تحفزها للعمل ، ونورا يهد بها السبيل ، وتسمو النفوس عن الصغائر والدنايا ، وتطهر من الأحقاد والضغائن ، وتحرر حتى تأبى على القيود ، وتتسع على الحدود ، وتنطلق فى الكمال إلى أبعد غاية

فهل انتهت هذه الدعوة الاسلامية ؟ هل أظلم قلب المسلم ؟ هل ذلت نفسه ؟ هل ذهب الخشوع بآماله ؟ هل ردّه الدهر إلى الصغار ، وأنزله اليأس إلى القرار ؟ هل يئس المسلم من السيادة ورضى أن يُسلم قياده ؟

كلا كلا ، إن فى الاسلام من المثل والأخلاق والفضائل والعزة والاباء والسمو والتاريخ الوضاء ما يملأ المسلمين حياة وآمالا وطموحاً واحتراما . لم تنته دعوة الاسلام ولكنها اليوم تقوى وتعظم ، وقد تهيأ الزمان لها ومهدت الحادثات سُبلها . بدأ الاسلام دعوته منذ أربعة عشر قرناً ولكنها لم تبلغ غايتها وأجدر بها اليوم أن تبلغها

ماتزال النفوس الانسانية طامحة إلى السمو ، نزاعة إلى الخير ، مفعمة بحب الحق والعدل ، توّاقة إلى الأخوة والحرية . فلن تقف دعوة الاسلام . مايزال المسلم الحق يرى نفسه خليفة الله فى الأرض ، مكلفاً أن يقيم العدل بين الناس ، موكلا بنصرة الخير ومحاربة الشر ، أنى كان ومتى استطاع . كل الأرض داره ، وكل الزمان وقته . فلن تقف دعوة الاسلام مايزال المسلم ينطوى

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان؛ ونفس لا تسف، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد فى عقله وقلبه، ولا يزال مجد الاسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلى والقلب الأبى فى نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام فى حماية أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الاسلام إن ابتغى فى غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! ياحسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميا! وياخسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن فى دين المسلم، وإن فى قلب المسلم، وإن فى خلق المسلم، مايربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته فى كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة فى المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم فى السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ماقسوتم على المسلمين! ثم شد مارفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بنى الاسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادى
يصابرون الأكبد الصوادى
ويا كلون الجوع فى البوادى
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب فى الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

***

أبت لهم كرامة الاسلام
أى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشـــارع الحمام

فلما تكسر فى أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار فى الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون فى الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تنته دعوته، ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله فى الأرض، ودعوته إلى الحق، وحجة على الخلق، فى أمره بالأخوة والحرية، والعمل فى الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق والوفاء. فان دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللاواء، والموت فى سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

عبد الوهاب عزام

من حديث الشرق والغرب
رسائل وأقاصيص
تأليف الدكتور
محمد عوض محمد
ثمن النسخة ١٢ قرشاً صاغاً
ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب

الدبلوماسية فى الاسلام

العلائق بين مصر وبيزنطية

فى عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

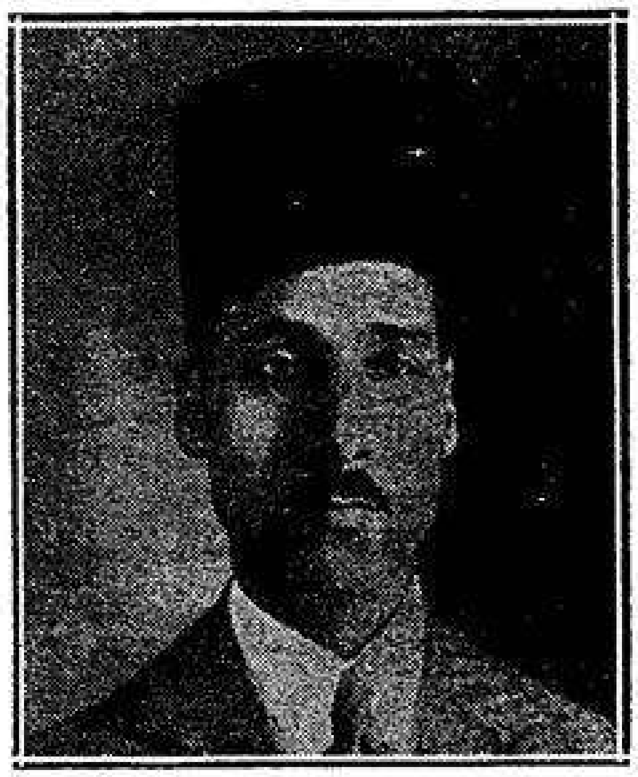

كانت بغداد محور السياسة الاسلامية فى المشرق يوم كانت الدولة العباسية فى ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ ببصرها إلى بغداد قلب الاسلام النابض ، ترقب حركاتها ومشاريعها ، وتتحوط لفوراتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فمنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخبو فيها فورة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التى بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، غدت فى ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تجيش بمختلف الاطماع والمشاريع ، وألفت الدولة البيزنطية فى قيام الدولة الحمدانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الاسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفره جيوشها وأساطيلها ما ينذر بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة اسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها فى يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذى كان يهددها فى موطنها الجديد ، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل . وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الاضطراب والفوضى ، فرصة للاغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحمدانية فى حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية إستبقاء لحياتها ، وإتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمى تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا فى سواحله واستولوا على انطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفى عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألفى الفاطميون والروم أنفسهم فى سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما فى عهد الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ -١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج فى المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثانى بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير فى حوادث الشام ، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أدركه فى الطريق ؛ وخلفه ولده

الحاكم بأمر الله طفلا ، وتولى تدبير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلى ؛ واضطربت حوادث الشام حينا ، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة فى صور ، وسار الروم فى البر والبحر لمؤازرة الثوار ؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف ، فبعث إلى الشام بجيش كبير ، استطاع أن يخمد الثورة ، وأن يهزم البيزنطيين فى عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م) ، واضطر باسيل الثانى أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى . ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال :

وهكذا لبثت الشام مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية . كانت السياسة البيزنطية ترى فى قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطرا جديداً عليها ، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت ؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطى عنها ، ولم تكن تجيش فى ذلك بأكثر من نزعة دفاعية ، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش فى عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع . وكانت الخلافة الفاطمية تتوق الى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية ؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور فى الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكرى ، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية ، فبعث الى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة . فاستجاب باسيل الثانى لدعوته ، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ واحتفى البلاط الفاطمى بالسفير البيزنطى احتفاء عظيما وزين الديوان الخلافى لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها ؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطى وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ؛ وأقام اريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى ؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح انها وقعت فى أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م) .

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها فى البلقان وأرمينية ، وقنعت من الشام بانطاكية ، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً ، وتحسنت العلائق بينهما ؛ ولكن سياسة الحاكم بامر الله إزاء النصارى ، واشتداده فى مطاردتهم ، وما اتخذه من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار ، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية . وحفيظة الكنيسة الشرقية التى كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية فى المشرق ؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل فى سير الحوادث . وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد فى تلطيفها ، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد فى تدبير مصرع أخيها وانقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة . فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم ، وقام ولده الظاهر فى عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها ، عادت الخلافة الفاطمية فى الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى ، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم ، ولاسيما كنيسة القيامة ، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية ، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم فى أموالهم وأنفسهم ؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته ، ورده بلاط قسطنطينية بلطف ، فعاد ادراجه ، ولم يمض قليل حتى توفى باسيل الثانى (١٠٢٥ م) .

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضى فى سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية ؛ ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت فى الأعوام التالية فى عدة معارك وحروب محلية فى خلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين ، وهزمت أمامهم غير مرة ، فان حكومة القاهرة لم تشأ ان تتدخل فى تلك المعارك ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين ؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله والإمبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى اعادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة فى حماية الامبراطور وتؤدى له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلى عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وان يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى عهد المستنصر بالله

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية ، وعانت مصر فى أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٥٤٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الأمبراطور توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، فخلفته الأمبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباها المستنصر ، واضطربت علائق الدولتين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك شديدة فى البر والبحر ؛ وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم ، وأخفق سعى السفير المصرى ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشأم ، وتطورت حوادث الشام فى الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعضعت قوى الدولة فى الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الاسلامية : تلك هى ثورة الحروب الصليبية التى اضطرمت منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية فى الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عنان

إدارة نشر وترويج الصحف الإسلامية
ومكتبة مصطفى محمد
لصاحبها : محمد مصطفى الفقيه
تليفون ٥٦٨٥٤ - العنوان التلغرافي "الفقيه بمصر"

لكل جديد لذة ورواج

إدارة نشر وترويج الصحف الاسلامية تقدر هذه الحقيقة. فتبادر دائما بان تسبق غيرها وتقدم لعملائها كل جديد من الصحف والكتب الحديثة حال ظهورها. قبل أن تتداولها الأيدى. لأنها تضع مصلحة عملائها نصب عينها وتسهر دائما على أن تجلب لهم كل ما فيه يسرهم ورخاؤهم لاعتقادها أن فى يسرهم ورخائهم يسرا ورخاء لها. وأن تقدمهم يعود عليها كما يعود عليهم بالخير والبركة. فما تزال دائبة على أن تنتهز لعملائها أعظم الفرص التى تكسبهم الشهرة والرواج ودوام الحركة

فبادر حالا بأن يكون اسمك فى قائمة عملائها العديدين فى الشرق والغرب ، وقدم لها الرصيد الكافى لطلباتك

فكل طلب لا يكون مصحوبا بالنقود لا يلتفت اليه .

والادارة لا ترسل بضائعها بطرق التحويل ما لم يصلها معظم الثمن ، وأسعارها محددة لا تقبل مساومة

شعارها دائما : الدين المعاملة ، والتعاون على البر والتقوى

ليتني كنت أدري!

للدكتور محمد عوض محمد

١

ليتنى كنت أدرى !
ما طواه الغيبُ من نَيْلٍ وويْلِ
وشقاء لابسٍ ثوبَ نعيمِ
وظلامٍ أقتم الوجه بهيمِ
وقضاء مبرمٍ في جنح ليلِ
ليتنى كنت أدرى !

٢

ليتنى كنت أدرى !
يومَ أن سرت على النهج القويمِ ،
لم أجِدْ عنه يميناً أو يسارا
مُثبِتاً طرفى وقلبى وجنانى ،
فى طريق ضيِّق ، واهى الأديمِ
يملأ الجفن ترابا
. . . . . وشقاء وغُبارا . . .
أن مِنْ حولى جِنَاناً
وهواءً خالصا . . .
يملأ القلب صفاء وسرورا وفخارا ...
عالَمٌ قد حُفَّ بالخير العميمِ
ساحر المنظر موفور النعيمِ
ليتنى كنت أدرى !

٣

ليتنى كنت أدرى !
حينما أُلبِسْتُ ثوباً من حديدِ
ليس يَبْلَى . . . .
كى يقينى حادث الدهر العنيد . .
أنْ سيغدو الجسم مُضْنًى
ومُعَنًّى بالقيود . .
والفؤاد الحرُّ رهناً
ببلاءٍ وجمودِ
يقتل الروح على الأيام قتلا . .
ليتنى كنت أدرى !

٤

ليتنى كنت أدرى !
حينما أمسكت كأسى بيمينى ،
أحتسى منها رحيقا وسُلافا ،
شَرِهاً لا يرتوى منى غليلٌ
نَهِماً لا أبتغى عنها انصرافا ،
أننى أشرب من داء دفينِ
أننى أرشفها سما زعافا
ليتنى كنت أدرى !

صوت الإله!

أنْصِتى يا جبالُ ! قد هدأ اللَّيْـــلُ وأرْخَتْ جفونها الظلماء ؛
ومضى اليــوم مُتْعَباً ينشُد الأمْـــنَ وقد كدَّ ظهرَه الإعياء ،
وسَرَتْ فى الوجودِ لهفة مشتا ق لمعنًى ينشق عنه الفضاء .
جثم الكون رابضا مُرْهفَ الأذ ن لِسِرٍّ توحى به العلياء :
لنشيدٍ يسرى إذا سكن الليــل فترْوَى به النفوس الظِماءُ :
نَغَمٌ يترك النفوس وفيها منــه نور وروعة وصفاء ؛
أنصتى يا جبال ! قد هدأ الليـــل وأرخت جفونها الظلماء !

***

أنصتى يا طيور ! قد سكن النَّسْــرُ وآوت لوكرها العنقاء ،
وغطاء الظلماء قد شمَلَ العا لم فالقبح والجمال سواء ؛
فاستكنى فى الوكر أو فاستقرى فوق غصن تبلُّهُ الأنداءُ
وأقلى الإنشادَ ! فالدهر والعا لم والليــل كله إصغاءُ :
لغناء ينساب كالجدول السا حر ؛ ما للقلوب عنه غَنَاءُ !
لا تعيه أذن السميع ولكن يملأ القلبَ حسنُهُ والرُّواءُ ...
أنصتى يا طيور ! قد سكن النســرُ وآوت لوكرها العنقاء ...

محمد عوض محمد

الذى نريده

للأستاذ عباس محمود العقاد

ما الذى نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين ؟

الذى نريده كثير جدا من الطمأنينة التى مصدرها الشعور بالقوة ، وقليل جدا من الطمأنينة التى مصدرها عدم الشعور

نريد أن نحس ذلك القلق الروحى الذى يحسه الغربيون على أثر كل معرفة جديدة ، وفى إبان كل اضطراب جلل ، وفى أعقاب كل دولة دائلة وفى مطالع كل مرحلة مقبلة . لأن القلق علامة النمو والحركة ؛ والنفس تنمو فيضيق بها كساؤها ، وتشعر بالحرج والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها ، وتحاول أن تخلع ما ضاق ورث ، وتلبس ما اتسع وحدث ، وهذا دواليك ما دامت تنمو وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار

أما الطمأنينة التى تستقر بصاحبها لأنه لاينمو ولا يتحرك ، فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها : أرأيت الحيوان الأعجم تفارقه الثقة قط ؟ كلا ! إنه يشبع ويسمن وينظر إلى الدنيا نظرة الرضى والتحدى كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء ... وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية ، وأوفى على الرجاء حقا ولكنه رجاء أخبث من القنوط . وشر ما يبتلى به المصرى والشرقى هذه الثقة وهذه الطمأنينة . فاللهم كثيرا جدا من القلق ، وقليلا جدا من الراحة والركود

***

الذى نريده كثير جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه لأنه نفى جميع الشكوك ، وقليل جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه لأنه يجهل الشكوك

الذى نريده كثير جدا من الخيال الذى لا يزال ينقلنا من واقع حسن إلى واقع أحسن ، وقليل جداً من « حب الواقع » الذى لايخرجنا مما نحن فيه ، لأن النوم واقع عند النائمين ، والجهل واقع عند الجاهلين ، والفقر واقع عند الفقراء ، والأسر واقع عند المستعبدين

زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام

ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه ! ألا ليت الشرق يحلم ويتخيل ، لأن الذى يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح

إن « الطيارة » هى واقع اليوم ولكنها خيال الأمس . وهكذا ينتقل العاملون من خيال إلى واقع ، ومن واقع إلى واقع غير الذى كان .

وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم ، وواقع عندنا بالأمس ، وواقع فى جميع الأزمان ، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم ونتخيل فنطمح ونأمل ونحيا ونعمل ، ونسوق الدنيا معنا من حال إلى حال ، ونخرج بها فى ركابنا من نطاق إلى نطاق

ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام ، ولكنها هى واقع العاجزين والضائعين ، لان خبزها هو خبز المائدة ، غير أنه مفقود ليس بمأكول ؛ ولذتها هى لذة المخدع ، ومخدعها هو المخدع الذى ينال بالدرهم والدينار ، لولا أن الدرهم والدينار ناقصان !! ومن يحقق ألف ليلة وليلة لايحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً ، ولكنما يحقق « الواقع » الذى عرفه الناس من أقدم الأيام ولا يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام ، وهما أيضاً من أوقع الواقع وأحس المحسوسات !!

فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة ، بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل هذا الخيال

ألف شرقى يدين بواقع العاجزين فدى لشرقى واحد يبيع العيش الصغير بالأمل الكبير ، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من طبقة إلى طبقة ، ومن مجال إلى مجال

***

نريد كثيراً جداً من « الذوق » الذى مصدره الفهم واليقظة والدماثة .

وقليلا جداً من الذوق الذى مصدره التأنث والسقم والاصطناع

لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالتثنى والتأوه كما يتحلى بهما النساء

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يبرمون بالجد كما يبرم به الصغار الهازلون

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل فى ميدان، ولا نافع لبنى الانسان، ولا مجتهد يحسن الاجتهاد، ولا فكه يحسن الفكاهة، ولا رجل عظيم أو مقبول فى زمرة العظماء

شبع الشرق من هذا الذوق، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح، وهو من شبعه أجوع ممن صام الف عام

أما الذوق الذى لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذى يحس الصغائر لأنه يحس كل شىء، لا لأنه على الصغائر موقوف، وفى الصغائر محبوس ومقصور

وهو الذوق الذى ينفذ من «البوتقة» لأنه جوهر حميم، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيف والغشاء المصبوغ

***

الذى نريده كثير جداً من الضحك الذى معناه الاقبال على الدنيا والاضطلاع بالاعباء والقدرة على التبعات

وقليل جداً من الوقار الذى معناه التهيب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ماوراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح

الضحك ملء الصدور والحناجر خير من الوقار ملء اللحى والتجاعيد؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر فى ميدان الكفاح خير من الوقار المحجم كأنه مخبأ الهارب من الميدان، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان.

***

الذى نريده كثير جداً من الحرية التى تعرف الحدود، وقليل جداً من الحدود التى لا تعرف الحرية. فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب

ان الحرية التى يتبعها الرقيب هى منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود

أما الحرية التى تعرف حدودها فهى حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد، لأن الحر الذى يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمى الحدود

***

الذى نريده بين القديم والجديد أن نمتلىء بالحياة، فاذا بالتعبير الصالح الجميل ينبثق من تلك الحياة

فليس القديم بضائرنا اذا حيينا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير

وليس الجديد بنافعنا اذا عبرنا محدثين، ونحن غير أحياء وغير شاعرين

ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلا منا!

وليست آفتنا قلة الشعر الجديد، بل قلة الشعور الجديد

وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التى تستحق أن تكون قصة، و «الواعية» التى تستوعب تلك الحياة

وليست آفتنا كساد المسرح، بل آفتنا أننا فى مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول؛ ولو كانت لنا فى مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية فى أدوار الممثلين، محكية فى أقوال المؤلفين

***

الذى نريده أن نفهم ما نريد وأن ننجز ما نريد، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الارادة. فانك إذا قلت لسامعك إنك تريد شيئاً من الأشياء فى يوم من الأيام فقد فهم ما تقول، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت فى الموعد الذى طلبت، وهذا هو الفهم الأصيل

الذى نريده كثير جداً

وقليل جداً إذا استطعناه، وإننا لمستطيعوه ببركة العزم والايمان

عباس محمود العقاد

الجزيرة والتاريخ الاسلامى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضع سنوات — ست أو سبع — زرت الحجاز وقضيت فيه أياماً أنظر وأسمع وأفكر . فرأيت أنى أصبحت أحسن فهماً للتاريخ الإسلامى والأدب العربى وأقدر على تمثل الصور والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لى قبل ذلك .

ولهذا اقترحت على صديقى الأستاذ الدكتور هيكل بك - لما شرع يكتب « حياة محمد » وينشرها فصولا فى السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الاسلامى من ذلك . والحجاز بلاد متحضرة ولكنى مع ذلك اهتديت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعنى وتبين ما أقصد إليه . فمن ذلك أنى دعيت فى جملة من دعوا إلى الغداء فى « وادى فاطمة » وهو واحة جميلة فى صحراء جرداء وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله فى « رحلة الحجاز » فلا أعيده هنا . ولكنه اتفق أنى ذهبت أتمشى بعد الأكل مع بعض الاخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أحدنا إن فى السرادق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقى واحد تخلف معنا معتذراً بأنه « أكل البارحة » فاستغربت قوله هذا ولكنى كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالى إلى كلامه أو أن أعيره التفاتا . ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوّف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام فى الجزيرة ، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم ابن السعود ، فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارع لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة . وأعنى به « خالد بك الحكيم » فتذكرت قول ذلك البدوى فى وادى فاطمة « أكلت البارحة » وقلت لنفسى إنى قد وقعت على الخبير فلأسأله فلن أجد أدرى منه وأعرف . فقال لى إن هذا معقول ، ولو أن البدوى قال « أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم » لما كان ذلك إلا طبيعياً . وذكر لى أن البدوى يذهب فى الصحراء ماشيا على قدميه أو راكبا ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللفافة — ويسمون العقال عقالا لأنه فى الحقيقة حبل يعقل به البعير — ويلتف بالعباءة ويتلثم ولا يكاد ينبس بحرف . فاما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذى تتطلبه الصحراء — والكلام جهد فهو إنفاق — وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه . ويظل ماضيا حتى يبلغ مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقى ماشاء من اللبن ويمضى عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم بروه وسروه وسقوه اللبن لأن مثله ممن ينحر لهم القوم . ثم يتفق أن يأتى قوما نحروا لضيف كريم فاذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام ، أقبل على « اللحم والأرز » من هم دونهم مقاما ، فيقعد الرجل ويهبر من اللحم ما شاء ومن الأرز ما أحب . قال صديقى « وصدقنى حين أقول لك إن هذا البدوى يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز . وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياما — عشراً أو عشرين أو أكثر أو أقل — لا يجد من الطعام إلا اللبن وقليلا من التمر أحيانا فاذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للهضم .

فلم يسعنى إلا أن أفكر فى أمر هذا البدوى الذى يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجهدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن « والتمر أحيانا . إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلا . ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التى لا رفق فيها من حرب وسعى وأسفار فى الفيافى المهلكة فان مثله يعدل ولا شك ألف جندى من جنود الدولة الرومانية المتخنثة ، ولا عجب إذاً إذا كان بضعة آلاف من هؤلاء

البدو الأشداء الخشنين المعروقين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التى كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم أن يهربوا ويفروا . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربى — أعنى البدوى — فلم أجد لها قيمة . وما عسى أن تكون قيمتها عند من لا يكاد يجد طعاماً أو ماء ، ومن لا يكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها . أو لم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى يئس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة ؟ . وحدثنى غير واحد ممن لقيت فى الحجاز أن المرء — بعد المعركة — يجىء إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به ، ويتفق أن يكون قد قتل فى المعركة ، فلا يزيد على أن يقول لك « ذُبح » يعنى « ذُبح » ، ولكنه يأكل الذال فى النطق فلا تسمع منه إلا « ُبح » . . ثم لا دمع ولا أسف ولا حسرة ولا لهفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرن به الموت . فكأن حياة البدوى الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفتر وقعه . وما قيمة القتل فى حرب أو نحوها والحياة معرضة للبوار والتلف فى كل ساعة ؟ ؟ وتصور كيف يكون اقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ما عسى أن يكون من اقبال غيرهم من أبناء المدنية والترف والبذخ على القتال ! . إن الذى يقبل عليه البدوى ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التى كان يحياها . وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الحفاة الذين لا يملكون إلا السيف والرمح والايمان المستغرق ، اكتسحوا دولا كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً ؟ .

ولست ترى فى الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا . والناس يعيشون فى هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شىء بعد ذلك ، لأنهم لا يعرفون المغالاة بقيمة الحياة إذ كانت لا قيمة لها عندهم . ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم مقبرة مثل مقبرة « جنوى » التى يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها ، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التى انحدرت على العالم المتحضر فى زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته . ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب ، بل قلبتها عربية صرفاً . وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية — كما لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم — لأن الفرس كانوا أقل تخنثاً من البيزنطيين . ولست مؤرخاً ولكنى أظن ان هذا هو السبب ، يضاف اليه ان البلاد التى فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف مافتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت أجنبية لا رومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومى فى بلاد فارس طبيعى ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً . لأنه لم يكن هناك فى الأصل . ولهذا بقيت فارس شوكة فى جنب الدولة العربية .

وقد زرت العراق وسورية — أو كما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام — كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل فى الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولا ثم إلى العراق ، فان طبيعة الأراضى الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون مقر دولة مترامية الأطراف عظيمة الرقعة . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقى الحجاز مقر الدولة العربية فى صدر الإسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعى لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما فى اليد إلى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هى مركز الدولة . أما فى زمن أبى بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر فى قلب الجزيرة أولا قبل إمكان التفكير فى

غيرها . وأما فى زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد فى عهده ، ولكن الفتح يستدعى التمكين والتوطيد أولا . ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبى عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة ، حتى لو كان كل شىء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش فى الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى . وأما زمن على وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية فى مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التى شادها بفضل ما تولى منها فى الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة فى غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والتشظف ، وفرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هى ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة . ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً فى قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة فى الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح . وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة . وقد يتغير حال الجزيرة فى المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة فى سبيل الحياة . ومهما يبلغ من غناها فى المستقبل فانها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على أن كلامنا على الماضى الذى لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد فى الدنيا لا على المستقبل الذى هو غيب .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

. . . مشى «عبدالله» حذراً ، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش ، فيقطعوا عليه سبيله ، فلم ير أحداً ، وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا فى مجالسهم كعادتهم فى كل مساء فاطمأن وسار قدما ، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون ، واتسع الوادى أمامه وانفرج ، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ؛ ونظر . . فراقه منظر الغروب . على هذه السفوح والذرى ، وأحس بجلال الموقف ، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق . وهذه الصفرة التى تعم كل شىء ، فنسى غايته ووقف ينظر . . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادى ، وتبدو الكعبة قائمة فى وسطها ، والأصنام التى تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود . . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا فى الغار . وذهب يتحسس لهما خبر قريش . ويعلم علمهما . ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق (١) . . فخاف أن يكون قد أصابهما شر ، فأغمض عينيه عن هذه المشاهد ، ومضى فى طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت فى المجد والظفر ، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هى مخبوءة فى صندوق من الصخر . على السهول والجنان والمدائن التى أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودها اليها وانصرفت عن الراية التى دفعها اليها محمد ، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب

(١) انظر كتابي « أبو بكر الصديق » صفحة ٩٠

فتركزها فى دمشق والأسكندرية ، وعلى إيوان كسرى . وفضلت عليها رايتها التى لم تتعود الخفق فى سماء المعارك الكبرى ، ولا ألفت الاهتزاز على أسوار المدن المفتوحة . . لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها . ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر ، ويعطيها العقل المبدع ، والقانون العادل ، والعبقرية والخلود ، فأبت ، وعكفت على أصنامها وتماثيلها . . فما أعجب عقل قريش !

ونظر إلى مكة مرة ثانية ، فاذا الظلام قد لفها بردائه ، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور نخالط نفسه سرور مبهم ، وشعر بزوال هذا الخطر القرشى ، واسترَوح رائحة الظفر ، فامتلأ قلبه أملا ، وجعل يجيل بصره فى الأفق الواسع ، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البلق فى الشام ، والصروح البيض فى المدائن . . . فمضى يتسلق الصخور إلى الغار ، وهو يقفز قفزاً ، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير !

***

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى . . . ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التى تلتهب فى أيام الصيف التهاباً ، وهذه الرمال التى تتسلسل إلى غير ماحد ، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة . لقد كان ذلك ، والتاريخ جنين فى بطن العقل البشرى لم يولد بعد ، وكان وهو طفل لايعى ، وكان والتاريخ صبى يميز ويدرك ، فرآه فسجله فى دفتره . . .

رأى وادى النيل ، وحوض الرافدين ، يمشيان إلى الخراب ، قد نضبت فيهما الحياة ، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة ، من وسط الرمال ، فتقذف إلى مصر بـ (مينا) ليكون أول فرعون فيها ، وتلقى بنى كلدة إلى العراق ، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر ، يفتحون حقائب أدمغتهم ، فيخرجون منها الحضارة الأولى ، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن ، وتدور الأفلاك ، فتطحن الناس ، وتحطم الحضارة وتطفىء الشعلة ، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد ، وتسمع الصحراء فتتهيأ ، وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط « مجموعة بشرية » عرفها التاريخ القديم ، ثم تاتى بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم ، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة فى العالم ، وتنشىء فى كل موضع « مستعمرة فينيقية » هى فى الحقيقة مدرسة عالمية ، كان من أمهر من تخرج فيها « اليونان »

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى . . . ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى !

***

فكر « عبد الله » فى هذا وهو يتسلق الصخور ، إلى الغار ، وكان لطول ماسمع من حديث الاسلام شديد الرغبة فى توحيد العرب ، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن « فى الشام والعراق » من الحكم الأجنبى . وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب ، أثمرتها فى رأس « عبد الله » الدعوة التى استجاب لها ، وآمن بها ، واستسلم عبد الله إلى أفكاره ، وأطلق لها العنان ، وشمل العالم كله بنظرة واحدة ، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة ، حراً لم تذله تلك الأنظمة الجائرة ، أبيا لم يألف طغيان الملوك ، وجبروت الأباطرة ، ليختم صفحة الماضى السوداء ، ويفتح فى التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرب ، ولم يعد صالحا ، ولا بد من شعب قوى ماهر ، يهدم هذه الأطلال البالية ، ثم ينشىء بناء جديدا .

إنه ليس فى العالم إلا ثلاث كتل كبيرة . . . كتلتان تتصارعان صراع الديكة ، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى ، فسالت دماء الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لتغدو قرمزية حمراء ، يمتازون بها من « سواد الشعب » وطاحت جماجم الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون ، لأنهم سيبنون منها برجا ، يترفعون به عن غمار الشعب

هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية ، وهناك كتلة أخرى فى زاوية الكون نائمة على ضفاف « الكنج » ووراء « هملايا » لا يدرى بها أحد . . .

أمم تشقى ليسعد أفراد . شعوب تفنى ليحيا رجال . مدن تحرق لتشعل منها « سيجارة » إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد ! فمن هو الذى ينقذ العقل البشرى من قيود الجهل والاستبداد ! من هو الذى يمحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة ؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة ؟ من الذى يمهد السبيل للمستقبل المنتظر ، لعصر الراديو والطيارة ؟ لعصر العلم والفضيلة ؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة ؟ لعصر السوبرمان . . .

لا أحد !

كل شىء هادىء فى العالم !

إن القافلة تمشى ببطء فى عرض البادية ، قد خرس الحادى ، ومات الدليل ، إنها تمشى نحو الموت !

إن السفينة تتخبط فى لجة اليم . تميل وتضطرب ، لم يعد لها أمل ، قد هبت العاصفة وطغى الموج ، وغرق الربان !

يا من يهدى القافلة الضالة ؟

يا من يخلص السفينة الحيرى ؟

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحمى العقل المهان ؟ يامن ينقذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من مجيب ، كل شيء هادىء فى العالم !

* * *

بلغ السيل الزبى ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فتلفت الناس فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنائس ، فأموا بيوت الله ، ونفضوا أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت فى وجوههم كل الأبواب ، ولكن باباً واحدا لا يزال مفتوحا فوق رءوسهم ، هو باب السماء .

وسمعوا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين ، علموا أنه سيبعث نبى جديد ، يطهر الأرض ، وينشر العدل ، فخرجوا فرحين مستبشرين ، قد احيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبى الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار فى سهول العراق الجميلة . . . فتشوا عنه على جبال لبنان الشجراء ، وحدائق الشام الغناء ، فتشوا عنه فى المدن الكبرى ، علّه يظهر إلى جانب القصور فى القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجبروت البشرى ، فيهزها ويزلزلها ، فتشوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج فى السهول ولا فى الجبال ولا فى المدن الكبرى ـ ولكنه سيخرج من حيث انبثقت الحياة ، من حيث بزغ فجرها من حيث خرجت الحضارات الأولى . . . من الجزيرة

تلك هى أم العالم فليلجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

* * *

فتشوا عن النبى المنتظر فى كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ، وديس الحق . . . فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنائس . فسمعوا فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة . . .

« يا شعوب العالم » !

« استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التى ستغمر العالم ـ وتغسله من أدران الماضى ـ لقد نشأت من غار عال منقطع . فى قمة جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال ـ نحو أرض الثمار والرياحين ـ نحو أرض المدنيات . . . لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخى : إن ركاب النبى المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب ـ إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة »

فخفقت القلوب فى كل مكان لذكر النبى المصلح ، وعاشت بحبه ، وسألت :

ـــ إلى أين بلغ ؟ إلى أين بلغ ؟

ـــ لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التى جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئا ، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه ، فهى تريد أن تزد النبى فتقتله أو تسجنه ، فهى تبعث رسلها ، يفتشون عنه فى أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ، ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفضاً ، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالى المكشوف الذى يطل منه سيد العالم

ــ أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبى المرتقب ؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذى تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للمجرمين ، يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون فى كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبى !

* * *

وانتبه « عبد الله » فاذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من ذهوله ، وتسلق الصخر مسرعا نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ، التى لم تفهم قريش معناها ـ وحسبتها سفرا من مكة إلى المدينة ، لقد علم أنها انتقال من الماضى الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق المنير . . . فليقفز إلى الغار قفزا . . .

* * *

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : . .

يا من يعرفون قيمة الفكر البشرى ، ويستمتعون بثمراته . . .

يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة . . .

لاتنسوا أبداً أن المنار الذى اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة الحيرى ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار (حراء) إذ بزغت منه أنوار الديانة التى هذبت العقل الانسانى ، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ بدأت منه الموجة التى نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، وقفت على الماضى السخيف ، وحملت إلى العالم أسمى المبادىء وأعلاها ، حين حملت إليه تعاليم حراء

إن هذه الغيران كعبة فى التاريخ ، لا ينبغ عقل ولا يمشى فى طريق التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها . . .

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو الغار . . .

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامى . . . ماخرج العالم من الهوة ، التى دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجبروت الملوك المستبدين . . . ولا كانت حضارة القرن العشرين !

. . . هذا هو معنى الهجرة ، التى نحتفل اليوم بذكراها ، فحق على كل متمدن أن يشاركنا فى هذا الاحتفال !

• عين التينة ــ سوريا **على الطنطاوى**

من صفحات البطولة

سلاميش

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي ثار لهيبها في الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يد المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصيح صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط في رماحه وسيوفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفارس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تبرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر اليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافي الحرير والقصب ؛ وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار

ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الأبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة في أبهة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجون أكبر معقل بقي للنصارى في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة ، وقوام ممشوق كأنه رمح رديني ، وعينه تلمع كأنها ريا بفرند سيف دمشقي . ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقته السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة ، فان هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها اذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الأصفاد ، وجريح في مثاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم ، وخمدت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين ، أو يبكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الاذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا اليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا « حسبك من تقتل من شباننا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفاك من الحرب النصر فلا تضم اليه دموع المساكين ، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين ، غير أن سلاميش بقي على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا باشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

الجنود بالوقوف ، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ماهناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان فى حملها . ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة ، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة ، وفى عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة ، وهى تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى ، جامدة العينين كأنها تتحدى . وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء ، لايكاد يستر منجسمها إلا مايستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول .

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهويلمع فى ضوء الشمس الغاربة . فدخلت الرحمة قلبه برغمه ، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها ، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلست له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان فى صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته . ثم عاد وقدأطرق قليلا حتى علا صهوة جواده . ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته . وألقى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم فى شغل من أمر جيشه حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه .

وتذكر الفتاة التى كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها ، فأمر غلاما أن يحضرها إليه ، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهى تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها ، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه ، ولم يستطع قهر عبرة ترددت فى عينه . وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به ، فقال الغلام بعد التحية « إنها لاترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها » . فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر ، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها .

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال : « يحزننى أنهم أساءوا إليك »

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة ، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها ، ونار الغضب تضطرم فى عينيها ، وكانت الملابس الرثة التى أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى ، ودفعت يده التى مدها نحوها وقالت وفى صوتها بحة : « ابعد يدك عنى أيها القاتل السفاك . أدر وجهك الكريه عنى فأنت قاتل أبى وأخى ، وأنت سافك دماء قومى ، وأنت المعتدى على وطنى . ابعد عنى وافعل بى ماشئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك » .

وكانت وهى فى ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة ، وكان صدرها يعلو ويهبط فى هياجها ، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة فى لفظها ولا رخامة فى صوتها ، ولكنه لم يجب بكلمة ، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير فى بطء ويشور به شىء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره ، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها ، وعن تلك الفتاة وبيتها ، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم ، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية ، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها ، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس ، وكان لها أخ قتل فى أثناء الحصار ، ومات أبوها يوم الفتح ، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة ، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن ، وصاحوا فى وجهه ، أنه آثر السلامة ، فحملته الحفيظة مع كبر سنه على الركوب فى وجه الجيش الفاتح ، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها ، وبات الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه إلى القسوة عليها ، ثم لايلبث أن يلين ، وتعاوده رحمته . حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها ، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض :

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالامس »

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ، ورأسها بين كفيها والتفت إلى خوان بالقرب منها ، فرأى عليه طعاما لم يمس . فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء : « وهل تريدين أن تموتى جوعا ؟ »

فلم تجب على قوله ، بل حاولت كم نحيبها .

فقرب منها ، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة :

« أقول لك اتركنى »

فلم يستطع أن يخالفها ، فأبعد يده عنها ، وتراجع ، ناظرا نحوها ، ثم تنفس نفسا طويلا وخرج وفى قلبه حزن وقلق

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا ، حتى لحظ أصحابه كآبته ، وعجب جنوده لجفائه ونفرته ، فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا ، ولا يسمع إلا متجهما ساهما ، حتى عجب الناس من ذلك الغضب ، فى عقب الانتصار ، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى اسرع الى سرادقه ، ووقف هذه

المرة متردداً وجلا ، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه في الصباح ، والخوان لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئاً

ونظر إليها ملياً ثم قال برفق : « أما تكلمينني ؟ إنني أرجوك أن تنظري إلي وتنطقي بما يجول في نفسك ولو كان قاسياً »

ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفاً ـ ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب . وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما في فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهي جالسة في مكانها كئيبة .

فجلس الى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهي لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين في عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود الى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إنني لا أريد ايلامك ـ لأنني لا أستطيع أن أراك متألمة ـ ولو كان ذهاب ألمك بابعادك عني لفعلت . ألك أهل في عكا أو في مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ ان السلطان لن يرد لي طلباً اذا طلبت منه شيئاً »

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجياً مستعطفاً ـ وكان أول ماقالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لي أهل ـ قد قتلتهم جميعاً » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت في هزة مريرة من الحزن

ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال لها :

« انني أرحمك في حزنك ولكنني لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائي وكنا معاً في ميدان قتال يسعون فيه الى قتلي كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل للشجعان مصير الا الموت في ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك ان يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى؟

انهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت في افتدائهم من أجلك ولكنهم في غير حاجة الى ولا اليك . انني قد رأيتك وبهرني حسنك ، ثم رأيت حزنك فآلمني حزنك . ثم تكشفت لي كبرياؤك فقهرت كبريائي ، ولو شئت أن تبعدي الى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة ـ وإن أحببت المقام هنا ـ كنت عندي ولا أقول لي حتى تقولي ذلك أنت »

فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البريق القاسي الذي كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم اغضت بعد أن طبعت في خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء الى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذي قدم اليها في ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئاً

وفي ذلك المساء وفد الى سلاميش بريد السلطان يحمل اليه أمر الارتحال الى دمشق بمن معه من الجند . ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافاً له بما كان من نضاله

وبكر سلاميش فذهب في الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعماً ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت في مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريباً منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه ، بل كان في حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس .

قال لها : « قد أمرني السلطان أن أتحرك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا »

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما في نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لي حظاً من هذه المدينة » فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة في يديك » فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيبي من الغنيمة من في المدينة من الأسرى تاركاً للجند أموالها وتحفها »

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة « وما ذا تفعل بهم ؟ »

فتبسم سلاميش نحوها وقال « هم لك »

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح « هل تفعل ؟ »

فقام ومد يديه نحوها وقال « لقد أكرمني السلطان العظيم بنصيبه ، وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به »

فمدت يديها وامسكت بيديه الممدودتين وقالت « ما اسمك ؟ »

قال باسماً « سلاميش » فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال « وإنني أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فان دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعي إلى دارك إذا شئت عزيزة في ظل السلطان العظيم » .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت في حياء « وأنت ؟ »

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاي »

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ! وأنا كذلك إلى دمشق أسير »

ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد

نســـيبة

للاستاذ ابراهيم مصطفى
المدرس بكلية الآداب

سيدة من بنى الخزرج من أهل يثرب، ولم يكونوا إذ ذاك سموا أنصاراً ولا كان الرسول هاجر إليهم، ولكن حديثه كان يملأ الجزيرة ودعوته تشغل العرب وقرآنه يبث بينهم ويتلى، كما كانت الأشعار تنشد وتروى.

وكان أهل المدينة أشد عناية بهذه الدعوة وأحق سؤالا عنها، فهم أصهار قريش وشركاؤهم فى التجارة وحفظة طريقهم إلى الشام وبينهم اليهود أهل الكتاب ورواة المأثور ومجمع الأخبار

وجلست نسيبة فى مساء إلى زوجها وولدها يتحدثون فى أمر محمد وأنباء دعوته وما حدث من قرآنه، وتلى تال (الر تلك آيات الكتاب الحكيم. أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وآيات أخرى من كتاب محمد. وعجبت نسيبة للكافرين أن ينكروا على رجل منهم أوحى إليه أن يهديهم وأن يبشرهم وينذرهم، وتساءلت بهذا السحر المبين أين يكون؟ وما هى إلا الدعوة الصالحة والحق الواضح والبيان الجميل. لشد ماظلم الرسول قومه وبئسما افتروا عليه. واشتاق القوم أن يروا محمداً وأن يستمعوا إلى حديثه ويستزيدوا من قرآنه.

وما جاء ميقات الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب الى مكة فى نحو خمسمائة حاج أكثرهم الرجال وقل فيهم النساء ومن بينهم نسيبة. وها قد أدرك الركب مكة وتوافى إليها الحجيج من كل فج واستقرت القبائل فى منازلها والرسول يسعى إليهم يعرض عليهم دينه ويبين رسالته ويتلو قرآنه بل يعرض نفسه أيضاً، لقد ضاق به المقام فى مكة ونبا وآذاه أهله فى نفسه وفيمن من آمن به، وبالغوا فى الايذاء والتنكيل حتى عاد بينهم كالعانى الأسير أو أنكد. وما يبغى الرسول؟ إنما يريد من العرب قوماً يسعونه حتى يؤدى رسالته، ويحمونه حتى يبين حجته، ثم يدعون من آمن لايمانه ومن كفر لكفره. وما من قبيلة رضيت هذا أو انشرحت له صدراً إلا جماعة من أهل يثرب واعدهم الرسول اذا انحدروا من منى أن يوافوه فى الشعب الأيمن بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً وأن يستخفوا من قريش ويحذروا عيونهم وأرصادهم، وما وافى الموعد حتى كان بين يدى الرسول سبعون منهم. بينهم نسيبة وسيدة أخرى عاهدهم وعاهدوه أن يسعوه بينهم وأن يحموه حمايتهم لأحدهم حتى يبين حجته ويبلغ رسالته. وراحوا بعهدهم يخفون من قريش ومن الناس أن يعلموه، وعادت نسيبة إلى بلدها سعيدة بإيمانها فخورة بعهدها، وقدرت ما يكلفها هذا العهد نفسها على الرمى بالنبل والضرب بالسيف وأعدت لهذا الجهاد ولديها حبيباً وعبد الله.

ودار الزمن وفر الرسول من مكة وهاجر الى المدينة وتلقاه الانصار بالنشيد والترحيب، ثم نشبت الحرب بين الرسول وبين المشركين من قريش فى يوم «بدر»، وشهدها المهاجرون الأولون والأنصار السابقون ونسيبة منهم تسقى من استسقى وتضمد الجرح لمن جرح، وتشهد غلبة الحق لأول يوم انتصر فيه. وعظم هذا اليوم على المشركين وهم الأكثرون فأعدوا عدتهم وحشدوا للرسول في «أحد» وشهدته نسيبة أيضا ومعها زوجها وولداها فى يمينها السقاء والضماد، واستعرت الحرب وغلب المسلمون ثم نالتهم هزيمة، فما ارتاعت نسيبة الا لجموع من المشركين تقصد إلى محمد تريد أن تحيط به وتكاد أن تبلغه والمسلمون عنه فى ناحية مثقلون بالهزيمة، فألقت السقاء والضماد وسددت بالسهم. ورمت عن الرسول بالنبل، حتى التحم به المشركون فشرعت السيف وجالدت القوم حتى جرحت وخارت وارتمت على الأرض مصروعة. وثبت الرسول وهزم عنه المشركون وانجلى من الغمرة ما انجلى وتساءلوا بنسيبة فاذا هى ملقاة يفور دمها من جرح غار بكتفيها. ضمدوا الجرح وسقوها الماء فما تنبهت حتى سألت: وأين الرسول؟ وماصنع المشركون معه؟ إنه لناج وانه منك لقريب. وجرحك الغائر ودمك السائل وقوتك الموهنة وولداك الناشئان وبعلك الشيخ ـ كل أولئك منك دون محمد! أجل دون محمد ودون رسالة محمد، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا، ولها نحيا، وفى سبيلها نموت. وبرئت نسيبة ونسيت الفخر إلا بهذا اليوم، وبالأثر الباقى من ذلك الجرح. (روى ابن هشام عن أم سعد قالت: دخلت على نسيبة أم عمارة فقلت لها: ياخالة أخبرينى؛ فقالت: خرجت يوم أحد ومعى وعاء فيه ماء فانتهينا الى رسول الله

وهو فى أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فكنت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح الىّ، وأرت على عاتقها جرحا أجوف له غور»

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله وملأت قلبيهما إيماناً وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما سفراء ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلمة الجبار البطاش المتنبئ كذبا فى قومه بنى حنيفة وهم من أكثر العرب عدداً وأغناهم وأقواهم بأساً. أتدرى ما صنع الكذاب بحبيب؟ لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يرويه لك، فى الجزء الأول من أسد الغابة فى ترجمة حبيب «أن رسول الله أرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة فكان مسيلمة إذا قال تشهد أن محمدا رسول قال نعم، فاذا قال تشهد أنى رسول الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه مسيلمة عضواً عضواً» اه

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلمة أشد الخصوم لددا وأقواهم كيداً وأكثرهم مالا وعدداً، كاثر بقومه بنى حنيفة واعتصم بحصونه فى «اليمامة» وصمد إليه خالد بن الوليد بجيش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله. واستعصى أمر مسيلمة وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستبسلين، رموا بأنفسهم مسيلمة لا يألون إلا أن يبلغوا إليه وينالوا نفسه، وفى هذا النفر نسيبة وولدها عبد الله، أما نسيبة فجالدت بالسيف حتى بتر ذراعها، وأما عبد الله فصمد وألح فى الهجوم على مسيلمة مستقتلا مستبسلا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلمة فماتت الفتنة بموته وتم أمر بنى حنيفة مع ابن الوليد صلحاً؛ وعادت نسيبة إلى بلدها بساعد واحد وولد واحد، وهى بما مضى أسعد منها بما بقى. كل إلى فناء، وإنما الفوز والجد أن يكون فى سبيل الحق ذهاب ما ذهب منك

ونسى التاريخ نسيبة وأغمض العين عن بقية أيامها وضن أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مثواها. إلا أن مثواها الجنة، وإن ذكرها فى الطيبات لخالد.

ابراهيم مصطفى

من مواقف العروبة

للأستاذ محمد سعيد العريان

مَن ذلك الفتى الشَّعاع، يختال فى العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسرا عن ذراعه، متقدما على صحابته، قد فَرَعَهم طولا، وبهرهم تماما وحسنا ...؟

قال أصحاب محمد: «ذلك قُزمان المدنى، ما نعرف فى أصحابه من يفوقه شهامة ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف، وينتصر للمظلوم، ويسرع إلى الصريخ؛ لا تنى به عزيمته عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة فى فتيانها أغيَرَ منه على حماه، وأبرَّ منه لأهله ...!»

قال محمد: «إنه لمن أهل النار ...!»

واستمع المسلمون لرأى النبى فى الفتى الذى اجتمعوا على الإعجاب به والتمدُّح بخلاله، فما راجعوه الرأى ولا ناقشوه العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبى إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون محمدا أصدقَ نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية. إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينيه الثاقبتين، فيعرف ما تجيش به نفس كل رجل منهم. وإنهم ليعيشون من هذه المدينة فى جو من الحذر والتربص، بين المنافقين من أتباع عبد الله ابن أبى بن سلول، وبين اليهود من بنى قريظة والنضير؛ فما يسيئون الرأى فى واحد بينهم إلا حسبوه عينا وربيئة من عيون المنافقين واليهود؛ فمن يكون «قزمان» بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدرى أحد ممن هو وإلى من ينتسب؟ إنه لرجل يعيش فى المدينة كما يعيش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر مما يرى منه ...

***

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد ، واجتمع إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة ، يطلبون الثأر لقتلى بدر . وسار جيش الشرك فى ثلاثة آلاف مقاتل ، ما منهم إلا موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولومات دونه ؛ وتطايرت رمال الصحراء تحت سنابك الخيل وأخفاف الابل ، نذيرا بما سيكون فى غد بين الطائفتين ؛ وسال الوادى يقذف بالزبد رجالا على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس ثائرة مهتاجة ؛ وتجاوبت جنبات البادية بحداء الرجال على نواصى الخيل ورنين الدفوف بين الظعائن ؛ حتى أشرف الجيش على (أُحُد) فتلبثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد . . .

وخرج محمد وأصحابه سبعمائة رجل إلى لقاء الجيش عند أُحُد ، فما تخلّف فى المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة ، وما انخزل عنه إلا المنافقون من أتباع عبد الله بن أُبَىّ . وتخلّف قزمانُ فيمن تخلف بالمدينة . . !

* * *

وغدا قزمان يمشى فى طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله . أين رفاقه وصحابته ؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدوّ فما تخلف منهم غيره ، ففيم بقاؤه ولا بقاء لمثله ؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن بما يؤمن به صحابته ؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذى يدينون الله عليه ، وذياداً عن الحق الذى يذعنون له ، بلى ، وحفاظاً على الوطن العزيز أن تطأ ثراه نعالُ الغرباء . . .

وتحدّث قزمان إلى نفسه هُنَيَّة : « ما مُقامى هنا وأصحابى هناك ؟ وَىْ ! وماذا تكون مقالتهم عنى وليس فى المدينة غيرى وغير هؤلاء ؟ »

هؤلاء كل ما هنا لك : شيخ هِمٌّ يمشى على عصوين ، وأعمى ضرير يتوكأ على عكازته ، وطفل لَدْن يركب عصاه يستبق مع لداته ، وعجوز عرقتها الأيام جالسة وراء الباب تنتظر ما يأتى به الركبان من أخبار الحرب ، وشابة مخضوبة البنان متوارية فى الخباء وأذنها إلى الطريق تتسمّع نبأ عن زوجها الذى خرج للجهاد ؛ وهذا الفتى وحده . . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « . . . وماذا يكون من أمرى حين يعود أصحابى أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون ؟ بل ماذا يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوسُ والخزرجُ أن تدافعا عن المدينة ؟ وما مُقامى وكيف أكون إن ظفر العدوُّ واستباح الحمى ووطئت نعاله ترابَ الوطن . . . ؟ يالأحساب قومى ، ويالعزة بلادى . . . ولكن . . . ! ياللعروبة ! أتغفر لى أن أقاتل فى صفوف محمد وما أنا على دينه ؟ »

وتوزّعته الفكرتان لا تُسْلِمانه إلى رأى فيهدأ ، ثم لم يلبث أن خلع الفكرتين جميعا إلى خاطر هَفَتْ له نفسه . . .

ومضى يحثّ الخطا إلى دار « سُلافة بنت طلحة » ، يلتمس فى الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس . مُنذُ كَمْ لم يجتمع قزمانُ وسلافة تُسِر إليه ويُسر إليها ؟ إن لها فى نفسه لمكانا ؛ وإن له فى نفسه لحديثا يَسره أن يلقاها فيحدثها به وتحدثه ؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة ، فهاهى ذى الفرصة قد أمكنته ليجلس إليها ساعة فى غفلة العيون . . . وطرق الباب . . .

— : « من ؟ من يدق الباب ؟ » .

— : « قزمان . . . ! »

— : « وىْ . . . ! قزمان ؟ وماجاء بقزمان الساعة ؟ »

— : « سلافة . . . »

— : « حسبتكَ هناك . . . ! »

— : « أتظنين ياسلافة ؟ »

— : « بل أعتقد . . . قزمان لا يكون هنا وقومه هناك ! »

— : « ولكنى هنا من أجلك ياسلافة ! »

— : « وقومُك . . . ؟ وأهلك . . . ؟ ودينك . . . ؟ »

— : « أنتِ قومى ، وأهلى ، ودينى . . . ! »

— : « لست منك ياقزمان إن لم تكن من أهلى وقومى ودينى ؛ لَخيرٌ لى أن أفقدك فى الجهاد وأنت أحبُّ إلى . . . ! »

— : « سلافة ! »

— : « سلافةُ لقزمانَ البطلِ المجاهد وليست لك . . . ! »

* * *

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليهم ثالث . وسار بين البيوت مطرق الرأس ، تتناوله نظرات الريبة والحدس . وسمع عجوزاً تتحدث إلى جارتها : « أما سمعت ياعاتكة ؟ »

— : « ماذا ؟ »

— : « حسيل بن جابر ، وثابت بن وقش ؛ إنهما من تعلمين : هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف ؟ لقد لحقا

اليوم برسول الله يرجوان المثوبة فى الجهاد أو الشهادة ، وما عليهما والله إن بقيا فى الآطام مع النساء والصبيان ، وما منهما إلا له إخوة أو ولد فى الحرب يكفون عنه . . ! »

قالت صاحبتها : « بلى ، قد علمت يا أختاه ! فهل جاءك أن عمرو بن الجموح لم يمنعه من الحرب أنه يمشى برجل واحدة ، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقع مع رسول الله ؟ »

وسمع الرجل ما تتحدث به المرأتان ، فكأنما كانتا ترجمانه بالحجر فما يستطيع أن يتماسك مما ينهال عليه . واستمر يمشى وكأنما تستعر الحرب فى رأسه لا فى الميدان البعيد

ومرت به « نسيبة بنت كعب » ، تحمل سقاء فيه ماء ، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداءه ؛ لقد كانت فى طريقها إلى أحد ، لتقوم بما تقدر عليه فى صفوف المجاهدين . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « ويلى ! ما أنا هنا والحرب هناك ؟ وما يكون من أمرى غدا على الحالين : فى النصر والهزيمة ؟ أفراراً من الموت ؟ أنكوصا عن الواجب ؟ أكفراً بالوطن والأهل والعشيرة ؟ ألا إنه يومك يا قزمان ، فليجاهدوا هم فى سبيلهم ، وليكن جهادى معهم لأجل الوطن . . . ! »

***

وترامت السهام ، وبرقت الأسنة ، والتقت السيوف ، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقزمانُ غير بعيد ؛ لقد أدرك الجيشَ ولما يبدأ النضال ، فما فاته أن يشهد المعركة من البداية

مَن ذلك الفتى الشعشاع ، يختال فى العزم والقوة ، والشباب والفتوة ، حاسراً عن ذراعه والسيف فى يده ، يحتز الرءوس ، ويقطع الأوداج ، ويلقى الرعب فى قلوب الأعداء ؟

إنه قزمان نفسه ؛ لقد قاتل فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، فما وضع السيف حتى أثخنته الجراحة .

والتف المسلمون حول قزمان يخففون عنه ما ناله من أذى القتال ، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه ، فهم يقولون : « والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ! » ، قال : « بماذا أبشر ! فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ماقاتلت . . . »

ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ثم انفضوا . . .

« إنه لمن أهل النار ! » هكذا كان يقول عنه محمد . صدق رسول الله !

ونظر قزمان إلى نفسه ، فاذا هو يتلاشى نفسا فى نفس ، وذكر صنيعه فى ذلك اليوم ، فعادت إليه الفكرتان الأوليان تصطرعان فى نفسه ، لا تسلمانه إلى رأى فيهدأ . أى الخطتين كانت أهدى سبيلا : أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شرَّ ممزَّق ، أو يقاتلَ فى صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم ؟

أما إنه لاسبيل إلى مافات . لقد أدى واجبه لوطنه ، ولكن ... ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه ...

ونزَتْ به نازية ، فلم يجد لنفسه خلاصا من عذاب الفكر إلا بالموت ، فاتكأ على سيفه فأزهق نفسه ... !

يالله ! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هدَتْه سبيلَ الوطنية ، ولكن قلبه ظل فى ظلمات من الضلال والشرك .

لو عرف ذلك الدينَ الذى جاهد له يومَه الأخير ، لأشرقت له الدنيا كلها ، وانبثق الصبح فى قلبه ، ولمات يوم مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود !

ليته عرف ! ولكن ، حسبه أنه كان مثالا فى الوطنية . ليت كثيراً يعرفونه . . . !

(شبرا) محمد سعيد العريان

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها : احمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشا

بين حراء . . . وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

وقف الرجل الذى تلخص فيه مجد الانسان وتحقق به وشاع منه على عرفات فى حجة الوداع ،وقد احتشدت حوله فى ذلك الرحب الصامت الرهيب الذى فيه أول بيت وضع للناس ، الأزمانُ والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الانسانية وحاملى المشاعل على طريقها، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ، وأجسادُ أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين . . ومن فوق الحشد الخفىّ والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقى الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزَّلة من حول العرش : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » . . . ويعلن حقوق الانسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة : هل بلغتُ ؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التى كان يأوى إليها فى طلب الهدى ثم فى التخفى بالدعوة ثم فى الجهاد لها ـ الجوابَ الاجماعى فى اقرار وشكران

وما بدٌّ من أن الكلمة الأولى : « إقرأ باسم ربك ... » التى طالعه بها الوحى فى « حراء » كانت تتردد على سمعه فى تلك البرهة الخالدة ، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده فى الأرض التى كان كل قدس فيها رجسا ، وكل برّة فَجِرة ، وكل امرىء آثما فى عقيدة القلب ، خَرِفاً فى رأى العقل ، ضارياً فى معاملة الخَلق ، طفلا فى طقوس العبادة ... أيام أن كان يتخفى بالغار فى حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ ، وأعصاب مرهفة ، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة ، وعقل عظيم ، ولكنه أمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسى والأحجار والأخشاب ، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب فى قهر وصمت وطواعية ووجوم ... وهو ذا الآن على عرفات فى استعلاءٍ ومعرفة وحشدٍ وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء فى العقل من عالم الشهادة ، وفى الروح من عالم الغيب، وفى اليد من أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التى بين جنوبهم ، فهم فى يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتدادا منه وظلا من دعوته . . وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متمٌ نوره ومعلٍ كلمته . وقد شبع عقله من جوعٍ إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحى ، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمُق ، ففيه لبنى الإنسان الهدى والحلى والطهر .

وقد تعوض نظره من رءوس الجبال التى حول حراء ، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة فى كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أوصمت . . حتى صُقلوا وصاروا أناسا كالنجوم المصابيح .

***

بين الكلمة الأولى الآمرةِ المغريةِ المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علَق ، وقصةِ القلم ذلك الشيء العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربكَ الأكرمُ الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم » وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق : « اليوم أكملت لكم دينكم . . . » . . . دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذى كان عقله مرآة لما يدور فى السماء حول صلاح عُمّار الأرض . وها هو ذا يقف معلنا « أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وأن حركة بدءٍ واستهلال وولادةٍ ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات ...

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته فى اليوم الأول ! ومنذا الذى يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا ؟

إذاً هو الأب الثانى للبشر وُلدت منه الإنسانيةُ ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد . ألم يستدر الزمان معه كما بدىء مع آدم ؟ ألم تبلغ البشرية به رشدها وتترك طفولتها وسفهها ووقوفها عند المجسَّمات من الأرباب والمعجزات ؟ ألم

يسلمها مفاتيحَ الطبيعة ويُهيب بها إلى الفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وكيف بدأ الخلق ؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من حبل الوريد ؟ ألم يمح الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحانى الفوارق بين بنيه من الجسد والروح ؟ ألم ينهها أن تقفو ماليس لها علم وأن تتبع الظن الذى لايغنى من الحق شيئا ؟ ألم يُدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب ؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها ؟ « لأن ربها واحد وأباها واحد » ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيواتها فى البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة ؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهى أمامه فى عرفات ممثلة فى الحبشى بلال الأسود والرومى صهيب الأصفر والفارسى سلمان الأبيض والعربى فى العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً بابلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك . ولو سكتوا لنطق الحصى الذى كان يرجم به فى بدء الدعوة وحطام الاصنام التى هشمها بيمينه فى يوم الفتح . .

أيها الرسول المنقذ ! كلمة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر فى فجر عام جديد لتلحق باقرار صحابتك فى فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك .

لقد بلغتَ كتاب الدنيا ورسالةَ كل شىء ، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شىء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذى المجد ، وحب الحق والخير والجمال . .

ولا يزال صوتك يدوى فى الآفاق مخترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء ، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضاءت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم .

***

الحقوق والواجبات التى خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها فى الخطبة الجامعة على الحشد الذى لم تلقه بعد كما توقعت . . صارت أبجدية الانسانية ومزمور أمانيها ، حملها العباد الذين كلفتهم حملها ممن شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به ، حملوها أنهارا تجري من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان والسهول المخصبة بالنبات ، الكرَّة المجدبة من فضيلة الإنسان .

فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام

وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رءوس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمعتَها وحطمتها ببرهانك وفيصلك . . فالثورة الانجليزية لإقرار الشورى ، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الانسان . . إنما هما صدى يحكى فى خفوت وضآلة وبطء . وتخلف ، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التى تأفك الانسانية وديعة الله فى الأرض وتصرفها عن وجه الله ذى الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ما بينها وبينهما ! إنها ثورة رجل يهتف فى بوق النبوة له قلب فيه مددٌ من هدى الوحى ، وسلام من رحمة الروح ، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحيانا بمبضع الطبيب لإذهاب الألم لا لاحداثه . وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عمياء ضارية ، قامت بها أيدٍ أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب . . تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث . ومن عماها أكلت الحطب والأيدى التى كانت تقدمه ، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لاتزال تغض منها وتثير حول ذكراها سخطا واشمئزازا ، والتاريخ ميزان .

(بغداد) **عبد المنعم خلاف**

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الخـلود

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة ، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع ، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه فى مظهر الحاضر ، وسلوة نتسلى بها عن الحرمان أوعثور الجد وسوء الطالع ، وثار من الموت ذلك الخصم العنيد الذى يحمل الشاب على الرحيل فى عنفوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه . فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس وشقاء وآلام وويلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم فى سبيل فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصور شتى وأشكال متباينة هى فى جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها . فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل وسفك الدماء الخلودَ على أنه عودة للانسان فى شكل مارد جبار شيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيـه المرء فى حلل السعادة وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينه والزخرف ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته فى صورة أسمى ، وكسته بكساء أفخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع العامة والدهماء وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى ، وعذوبة الخيال فنتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ، وحرمة الدين فنؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفه ، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما لا يخضع لمبادىء القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يتفهم سره وغايته ويبرهن على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود كلمتها بالايجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة الحاضرة وقوانينها لم يفتهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يبدئوا فيه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا ، فهو من فلسفتهم الدينية فى صميمها ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع ، ثم لم يقنع بهذا فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هى « فيدون » . وفيها يجرى ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله من الأتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى مبدع يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المتهم البرىء الذى

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحى الذى يسعى إلى الموت فى خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث عن خلود الروح فى آخر يوم من أيام حياته فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة فى حواره من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف وافتنان فى وسائل الأثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن نلاحظ أولا أن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الاصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد . وما دام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان . وقديما قالت الأرفيه والفيثاغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ! وبهذا يخرج الحى من الميت كما يخرج الميت من الحى ، وتبقى النفس رحالة متنقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ! والشبيه وحده هو الذى يدرك الشبيه . فلا بد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها، فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يجتمع فى ماهية واحدة ضدان ! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ، وأنى لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون فى برهنته ؟ إذا اختبرنا أدلته لم نتردد فى أن نجيب بالسلب ، فان فكرة صدور الضد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الأغريق أن الانسان لا يدرك إلا ما يشابهه . فإنا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الانسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسى القديم الذى كان يعد النفس فى آن واحد مصدر الحياة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فأنه يصرح على لسان سمياس أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير فى هذه الحياة . وجدير ببحث كهذا أن يوضع فى قالب القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين

وسواء أوفق أفلاطون فى برهنته أم لا فانه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا حبب إلى الخلف السير فيه . فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به فى هذا الصدد ابن سينا الذى قد يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توفر لديه مالم يتوفر لدى أستاذه ! فقد وقف على الوحى الألهى الذى صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة فى الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفى خيال حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوى ومقامها فى هذا العالم الفانى ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع

* * *

ان كان أهبطها الاله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لمالم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين نخرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأبى إلا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس وهى جوهر بسيط لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها . فلا يمكن أن يكون فيها أى استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم فنى ، فان صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد فى شىء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر فى شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هى المتصرفة فى البدن والمدبرة لأمره ، ولن ينقلب الآمر ماموراً ولا المتأثر مؤثراً .

يد أن حظ ابن سينا فى هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) الى هذا التهافت فى البرهنة والقصور فى الاثبات . فرفض فى كتابه « نقد العقل المجرد » الأدلة التى تساق لاثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يهتدى الى شىء يقينى فى دائرة الأمور المغيبة ؛ وفى هذا ما يسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان فى جانبه ، وما يهيئ للوحى والالهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر . خصوصا والتبعة الأخلاقية لاقيام لها بدون الثواب والعقاب والحساب والمسئوليه ، والواجب فى حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرته . لهذا نرى (كانت) يعود فى كتابه « نقد العقل العملى » فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمى الذى ننشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما فى حياتنا الحاضرة القصيرة . فأن شئنا أن يكون للواجب الذي ننادى به قيمته وللأخلاق التى ندعو اليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما والعدالة تأبى كل الاباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعدام ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأنى بكانت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكاديمى فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقى ليس اكثر إقناعا من سابقيه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادىء أخرى .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار وأن تنزلج فى هذا المأزق الحرج . فى مقدورنا أن نقول إنه ممكن أو محتمل أو ضرورى ، ولكن لاسبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعى . وأنى لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين وليس فى وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة . واذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره . وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادى أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة . وأن بحثهم يرفض أى وجود بعد هذا الوجود . فأن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه ، وللبحث العلمى دائرة لا يتعداها ؛ ومن العبث أن نتكلم باسم العلم فى دائرة تسمو على العلم ، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود . ولن يضير الخلود فى شىء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع . ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض فى بيانه فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم . هو أمر خارج عن عالم الفناء ، وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضحا ما يتنافى وطبيعته الا أن عرج الى سماء الخالدين

ابراهيم مدكور

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

مرتباً ترتيبا حديثا ومصححاً تصحيحاً علمياً على أصوله الخمسة وهى الصحاح للجوهرى وحواشيه والنهاية لابن الأثير والجمهرة لابن دريد والمحكم لابن سيده والتهذيب للأزهرى

ارسل ٢٥ قرشا صاغا باسم الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى مدير دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف ـ بعطفة الشوشترى خلف بلانشى بالموسكى ـ يصلك الجزء الأول منه وتعد مشتركا فى الجزء الثانى

ملاحظة : ثمن الجزء قبل الطبع ١٠ قروش و ١٥ قرشا بعده ، وأجرة البريد لمن فى القطر المصرى قرشان صاغا وضعفه لمن فى الخارج .

نتاج العبقرية المنسية

فى الحسن بن الهيثم

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يفكر الدكتور النابغ الأستاذ مشرفة عميد كلية العلوم للجامعة المصرية فى إقامة مهرجان لأحياء ذكرى ابن الهيثم فى العام المقبل بمناسبة مرور ٩٠٠ عام على وفاته

ولا عجب إذا فكر العميد فى هذا ، فابن الهيثم من عباقرة العرب الذين نبغوا فى الطبيعة والرياضيات والهندسة وقدموا جليل الخدمات لها ، ولولاه ما كان علم البصريات (الضوء) على ما هو عليه الآن

ويؤلمنى أن أقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوربية لرأيت كيف يكون التقدير وكيف يذاع اسمه وتنشر سيرته على الناس وتدخل فى برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاماً وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته

أليس فى عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عن ابن الهيثم أجحاف وعيب فاضح ؟ أليس إهمالا منا أن نعرف عن بطليموس وكيلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم ؟

ألا يدل هذا على نقص معيب فى برامجنا الثقافية القومية ؟ ولا يظن القارىء أن ابن الهيثم وحيد فى هذا الاجحاف والإهمال فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه ، فها هي ذى حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء وهى فى أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس .

ولا شك أن فى إظهارها انصافاً لهم وخدمة للحقيقة ، كما أن فى عرضها على الناشئة من العوامل التى توجد فيهم الاعتزاز بالقومية والاعتقاد بالقابلية ، وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد فى رفع مستوى المدنية . ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد ، قوى تمهد السبل لتقوم (الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الانسانية فتساهم فى بناء الحضارة وإعلاء شانها

والآن نرجع إلى ابن الهيثم فنقول إنه ظهر فى أوائل القرن الخامس للهجرة فى البصرة ونزل مصر واستوطنها إلى أن مات سنة ١٠٣٨ م . وقد عرف الاقدمون فضله وقدروا نبوغه وعلمه فقال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ، ولا يقرب منه ، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد ... » وقال ابن القفطى : « إنه صاحب تصانيف وتآليف فى الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفننا فيه ، قيما بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل أخذ عنه الناس واستفادوا .. »

وكذلك عرف الافرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض الانصاف واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته فنجد دائرة المعارف البريطانية تقول : « إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات ... »

وجاء فى كتاب تراث الاسلام : « إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » ، واعترف العالم الفرنسى لوتيرفياردو بأن كبلر أخذ معلوماته فى الضوء ولا سيما ما يتعلق بانكسار الضوء فى الجو من كتب ابن الهيثم . ويقول سارطون « إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ... » .

ولعل الأستاذ (مصطفى نظيف) أول عربي فى هذا العصر أنصف ابن الهيثم بعض الانصاف ووقف على التراث الضخم الذى خلفه فى الطبيعة ولا سيما فيما يتعلق ببحوث الضوء . قال الأستاذ نظيف فى مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات) ما يلى : .. « والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى أن علماً ازدهر فى عصر التمدن الاسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ... » فلقد بقيت كتبه منهلا عاماً نهل منه أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وكبلر وليوناردو فنسى وبووتيلو وغيرهم . وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة فى الضوء هي التي جعلت ماكسى ومايرهوف يقول صراحة : « إن عظمة الابتكار الاسلامى تتجلى فى علم البصريات ... »

ومن أهم كتب ابن الهيثم وأكثرها استيفاء لبحوث الضوء كتاب « المناظر » ، ويتبين من هذا الكتاب أن ابن الهيثم هو

الذى أضاف قانون الانعكاس القائل بأن زاويتى السقوط والانعكاس واقعتان فى مستوى واحد . وقد أدخل فيه أيضا مسائل مهمة عرفت ، بمسائل ابن الهيثم ، اشتهر بعضها كثيراً كالمسألة الآتية : إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها . ويعود سبب شهرة هذه المسألة إلى صعوبات هندسية تظهر فى أثناء الحل إذ ينشأ عن ذلك معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وأجرى تجارب عديدة تبين له منها أن الضوء ينتشر فى خطوط مستقيمة أثناء سيره فى الهواء أو فى وسط آخر، وأن الضوء إذا سار من وسط إلى وسط آخر انعطف عن استقامته . وقاس كلا من زاويتى السقوط والانكسار وبين أن بطليموس كان مخطئاً فى نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتى السقوط والانكسار ثابتة ، وقال بأن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير ولكنه على الرغم من ذلك لم يوفق إلى إيجاد القانون الحقيقى للانكسار . واستعمل آلة لايجاد العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار وهى تشبه الآلة التى نستعملها الآن . وعمل جداول أدق من جداول بطليموس فى معاملات الانكسار لبعض المواد . وأتى على تجارب عديدة اثبت فيها انعطاف الأشعة عند سيرها من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف . وقد شرح فى بعض كتبه الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء إلى ذلك . ومن هذه الظواهر التى ذكرها وشرحها الانكسار الفلكى أى أن الضوء الذى يصل إلينا من الاجرام السماوية يعانى انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض، ومن ذلك ينتج انحراف فى الاشعة . ولا يخفى ما لهذا من شأن فى الرصد . فمثلا يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلا ، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما فى الحقيقة يكونان تحته . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس أو قرص القمر لا يظهر بالقرب من الأفق مستديراً بل بيضوياً . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلا صحيحاً واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية . ومن الحوادث الجوية التى عللها الهالة التى ترى حول الشمس أو القمر . وقال بان ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون فى الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذى يمر فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة ، وحينئذ يصل النور الى عين الرأى كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما . وهو من الذين لم يأخذوا برأى اقليدس واتباع بطليموس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئى ، بل قال بان شعاع النور يأتى من الجسم المرئى الى العين . وبحث فى كتابه أيضاً فى قوى تكبير العدسات ؛ ويرى كثيرون ان ما كتبه فى هذا الصدد قد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى اصلاح عيوب العين . وكتب فى الزيغ الكرى وفى تعليل الشفق وقال انه يظهر ويختفى عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق ، وأن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما فى الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى بها ما انعكست عنه . وبين ان الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الأفق وهمية ؛ وقد علل هذا الوهم تعليلا علمياً صحيحاً لم يسبق اليه ، بناء على أن الانسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين : الأول الزاوية التى يبصر منها أو زاوية الرؤية ، والثانى قرب الجسم أو بعده من العين . وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام . وقد اعتمد فى بحوثه هذه على كتب التشريح التى كانت فى زمانه ، ووضع أسماء لبعض أقسام العين وأخذها عنه الافرنج وترجموها إلى لغاتهم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن ابن الهيثم كتب فى تشريح العين وفى وظيفة كل قسم منها . وقد بين كيف تنظر إلى الأشياء بالعينين فى آن واحد ، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى إلى العينين ، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية فى محلين متماثلين . ولعل هذا الرأى هو أساس آلة الاستريسكوب

وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التى تنشأ من وقوع صورة المرئى على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التى تتكون بها صورة جسم مرئى تمر أشعته الضوئية من ثقب فى محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذى دخل منه النور ، والسطح يقابله فى العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء ، فاذا ماوقع الضوء حدث تأثير انتقل إلى المخ ، ومن ذلك تتكون صورة المرئى فى الدماغ . وله أيضا معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمفرقة والمرايا فى تكوين الصور ؛ وكتب فى المرايا المحرقة وأجاد فى ذلك إجادة دلت على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التى تسقط

على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان .

ويظن البعض أن ابن الهيثم لم يشتغل فى الرياضيات ، مع أن الواقع خلاف ذلك فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه ونضجه العلمى ، فلقد بحث فى المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط . ويقال إن الخيام رجع إليها واستعملها . وقد حل كثيراً من المعادلات بطريقة تقاطع المنحنيين وتمكن من إيجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محور السينات أو محور الصادات . وتنسب إليه بعض رسائل فى المربعات السحرية واستعمل نظرية افناء الفرق ووضع أربعة قوانين لايجاد مجموع الاعداد الطبيعية المرفوعة الى القوى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . وله بحوث فى الهندسة تدل على تعمقه فى علوم زمانه . ولقد طبق الهندسة على المنطق والف كتابا يقول فيه . . . . كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أقليدس وابلونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى اقليدس وابلونيوس . وله مؤلفات أخرى قيمة فى الرياضيات والطبيعة منها كتاب شرح أصول اقليدس فى الهندسة والعدد وتلخيصه كتاب الجامع فى أصول الحساب ، وكتاب فى تحليل المسائل الهندسية ، وكتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهناً ، وكتاب فى حساب المعاملات وكتب أخرى فى بحوث رياضية عالية . وله غير كتبه فى الرياضيات والطبيعة كتب فى الالهيات والطب يربو عددها على الخمسين .

واشتغل ابن الهيثم فى الفلك ويعترف بذلك سيديلو فيقول : « وخلف ابن يونس فى الاهتمام بعلم الفلك جمع منهم حسن بن الهيثم الذى ألف أكثر من ثمانين كتابا ومجموعة فى الأرصاد وتفسير المجسطى ... »

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم فى ميادين العلوم الطبيعية والرياضية يتجلى للقارىء منها الخدمات الجليلة التى قدمها لهذه العلوم والمآثر التى اورثها إلى الأجيال والتراث القيم الذى خلفه للعلماء والباحثين مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذى يشغل فراغاً كبيراً فى الطبيعة ، والذى له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات ، والذى لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة فى دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجرى فى الاجرام السماوية من مدهشات ومحيرات .

والآن نقف عند هذا الحد آملين أن تخرج فكرة الدكتور مشرفة إلى حيز الوجود فيكون بذلك قد أنصف عالما عالميا من أفذاذ علماء الطبيعة والرياضة ، ويكون أيضا قد أدى واجبا ثقافيا وطنيا هو من أقدس الواجبات ، وأضاف مأثرة إلى مآثره العديدة فى خدمة الثقافة العربية وبعثها .

(نابلس) **قدرى حافظ طوقان**

كتابان جديدان

الموجز فى المحادثات

١ فرنسى وانجليزى وعربى ٢ فرنسى وعربى مع تصوير النطق

تأليف الأستاذ

محمود محمد سالم

خريج التجارة العليا بليون

ورئيس القسم الأوروبى بدار المحفوظات العمومية

كلاهما دروس عملية لا تحتاج إلى مرشد ، الأول يرشدك عن طريق المقارنة ، والثانى يتغلب بك على عقبات النطق ، بكل منهما ٥٨ موضوعا وافيا :

مفردات ، محادثات ، رسائل

ليس فى غنى عنهما أو أحدهما : كل تلميذ فى المدارس الثانوية ، وكل راغب فى اللغات الأجنبية ، بل كل محب لزيارة البلاد الغربية ، فاتخذهما صديقان لك من اليوم

والكتابان مطبوعان بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعا متقنا ، على ورق جيد ، وتجليد أنيق

يباعان بجميع المكاتب وثمن كل منهما ٦ قروش مجلدا ويطلبان بالجملة من مكتبة «مصر» بشارع الفجالة ، بمصر

ارسل ٦٨ مليما طوابع يصلك أحدهما بالبريد داخل القطر

تصحيح نص عربى قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام

للأستاذ عبد القادر المغربى

جاء فى كتاب (طبقات الشعراء) لأبى عبدالله بن سلاّم الجُمَحى المتوفى (سنة ٢٣٢ هـ) نص يتعلق بأخبار (عقيل بن عُلَّفة) فيه اضطراب وفيه تلفيق أحببنا تحقيقه فى هذا المقال.

والنص — عدا ذلك يتضمن فائدة تتعلق بالاجتماع الإسلامى وتصف لنا ناحية من نواحى عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام

وعقيل بن علّفة هذا من أتباع (مدرسة المخضرمين) أو (مدرسة الخضرمة) إن سُمح لنا بهذا التعبير. وهى المدرسة التى تتلمذ فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم؛ فكانت معرفتهم بآدابه سطحية. كانوا يراعون تلك الآداب حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلى فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه فى جاهليتهم حيناً آخر. كانوا يتعزّون بعزاء الجاهلية. ويحاربون القبائل المعادية لهم عصبيةً لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله وشرائع الإسلام. وما كانوا يتورّعون من شرب الخمر فى بعض الأحايين ولا من الحنين إلى نزعاتهم الجاهلية: ومنها الفخر والمنافرة والمهاجاة والإفراط فى الغيرة. كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها بشاشة الإسلام وسجاحته ولين جانبه.

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن علّفة المرّى) و (عُلّفة) على وزان (قُبّرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح. وهو ثمر أشبه باللوبياء.

كان عقيل أعرابيا جلفا مفرط الغيرة، له نزوع شديد إلى عادات الجاهلية، فخوراً بها، داعيا إليها

هنأ يوما أحد فتيان قريش بزواجه قائلا له: «بالرفاء والبنين والطائر المحمود» فقيل له: يُكره أن يقال هذا فى الإسلام وإنما هو من تهانى الجاهلية. فأجاب عقيل: يا ابن أخى! ماتريد إلى ما أحدث؟ إن هذا قول أخوالك فى الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره»

وقد رويت كلمته هذه للزهرى فقال إن ابن عُلّفة كان من أجهل الناس»

وعدا بنوجعفر على مولى لابن علفة، فعَدَا هو على مولى لهم ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأنشد:

فلا تحسبوا الاسلام غيّر بعدكم   رماح مواليكم فذاك بكم جهلُ

ومن أخبار جفائه مارواه ابن أبى الحديد فى شرح النهج. (ج ١ ص ٤٤٠) نقلا عن ابن قتيبة. قال:

خطب هشام بن اسماعيل المخزومى والى المدينة (وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك الذى قال فيه الفرزدق بيته المشهور: وما مثله فى الناس إلا مملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلّفه ابنته فردّه وقال:

رددتُ صحيفة القرشى لما   أبت أعراقه إلا احمرارا

يريد أن فيه شبها للعجم وعرقا منهم فلم يزوّجه لذلك. وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمى الأصل. والعرب تسمى الأعجمى أحمر، وتجمعه على أحامر. لأن الشقرة تغلب على جنسه. ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم «بُعثت إلى الأسود والأحمر» يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل: والله مانراك تقرأ شيئاً من القرآن. قال: بلى والله إنى لأقرأ. قالوا: فاقرأ. «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه» فقرأ «إنا خرّطنا نوحا إلى قومه» قالوا: أخطأتَ والله. قال: فكيف أقول؟ قالوا. تقول: «إنا أرسلنا نوحا» لا، «خرّطنا نوحا» فقال: أشهد أنكم تعلمون أن

« أرسلنا » و « خرَطنا » سواء ثم أنشد

خذا صدر هرشَى أوقفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

وهذا البيت يُتمثل به حين التسوية بين أمرين . و(هرشى) كسكرى ثنية قرب الجُحفة فى طريق مكة يُرى منها البحر ولها طريقان طريق عبَّر عنه الشاعر بصدر هرشى وطريق عبَّر عنه بقفا هرشى ، وضمير (لهنّ) يرجع إلى النياق . والخطاب فى (خذا) يرجع إلى رفيقى سفره فهو يقول لهما : اسلكا إلى هرشى أىّ الطريقين شئتما : جهة صدرها أو جهة قفاها فأنتما واصلان إليها .

وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامىّ الشامىّ (كل الدروب على الطاحون) أى تؤدى إليها . ومعنى (خرطنا) الذى قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) ماذكره القاموس فى قوله (خرط عبده على الناس إذا أذن له فى أذاهم) .

قال التاج (شبه العبد بالدابة التى يُفسخ رسنها وترسل مهملة تفعل ماتشاء) فالخرط أصله فى الدابة ثم نقل إلى العبد ، ونقله عقيل إلى نوح عليه السلام ، وهذا من عنجهيته وتعنته فى جاهليته

ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته : من ذلك قوله يرثى ابنه علّفة :

لتمش المنايا حيث شئن فإنها
مُحلّلة بعد الفتى ابن عقيل

فتى كان مولاه يحل بنجوة
فحلّ الموالى بعده بسبيل

يقول : إن حلفاء علفة أو جيرانه كانوا فى حياته ينزلون فى مرتفع من الأرض حيث هم مكرمون أو حيث تضىء نيرانهم للمدلجين بما يجود به عليهم علّفة من القرى ، أما اليوم وقد مات علّفة فنزولهم أصبح فى قوارع الطرق حيث يُمتهنون أو حيث يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السبيل . ونَسَبَ إليه بعضهم البيت المشهور :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رمانى

وإنه قاله فى ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات لغيره . فلعله استشهد به كما استشهد به على بن أبى طالب رضى الله عنه فنسب إليه أيضاً .

أما النص الذى روى من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق من جهة ، وعبرة اجتماعية اسلامية من جهة ثانية — فهو ما فى كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة ٢١٤) ونصه :

« حدثنى أبو عبيدة أن يزيد بن عبد الملك خطب إلى عقيل ابن علفة ابنته وقال : زوجنى فلست بواجد فى قومى مثلى . قال عقيل : بلى والله لأجدن فى قومك مثلك وما أنت بواجد فى قومى مثلى . فحبسه يزيد فضرب عقيل كتف ابنه جثامة وقال زوجه يابنى فأنت أحق باللائمة ، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل ، فلما أهداها تمثل جثامة فقال :

أيعذر لاهينا ويلحين فى الصبى
وهل هن والفتيان إلا شقائق

فرماه عقيل بسهم وقال : أتتمثل بهذا عند بناتى ؟ فخرج جثامة مراغماً لأبيه (أى مفارقاً له على رغم منه وكراهة) فأتى يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل الى يزيد : إنه قد أتاك أعق خلق الله . وكان يزيد قد أعطاه وحباه . فأخذ ذلك منه وحبسه » انتهى نص ابن سلام .

لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر : أيعذر لاهينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة . فلم يبق إلا أن الخبر مضطرب يحتاج إلى تصحيح . أو نقول هو ملفق يحتاج إلى تقويم وتوضيح .

والتلفيق أصله فى الثوب : يعمد إلى ما بلى ورث من وسطه ثم يضم لفقاه (أى طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان .

فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهى لفقه الأول عند قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق واللفق الذى بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ يمكننا العثور عليه فى معجم البلدان طبعة أوربا (ج ٤ ص ٦٦٧) عند الكلام على دير سعد . وهذا نص ما فى المعجم بعد حذف السند :

« خرج عقيل بن علفة وابنه جثامة وابنته الجرباء . (ولعلها غير أم عمر التى زوجها من الخليفة فى الخبر المنقول عن طبقات الشعراء) حتى أتوا بيتاً له ناكحا فى بنى مروان بالشامات (يعنى أن عقيلا كان ناكحا أى متزوجا امرأة فى بنى مروان وقد أتاه زائراً مع ولديه . والشامات هى بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى

إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما   على عرض ناطحنه بالجماجم

ضمير قضت يرجع إلى النياق . وقوله (على عرض) بالعين المهملة ولعل صوابه (على غرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه إذا اشتاق إليه) .

« ثم قال عقيل لابنه : أنفذ يا جثامة (أى أجز البيت بضم بيت آخر إليه) فقال جثامة :

فأصبحن بالمومات يحملن فتية   نشاوى من الإدلاج ميل العمائم

إذا علم غادرنه بتنوفة   تذارعن بالأيدى لآخر طاسم

(طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) ثم قال عقيل لابنته الجرباء : أنفذى يا جرباء فقالت :

كأنّ الكرى سقّاهمو صَرْخَدِيةً

عُقاراً تمشى فى المطا والقوائم

(قول الجرباء هذا فى وصف الخمرة وتأثيرها فى ظهر شاربها وقوائمه راب أباها عقيلا وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شاربى الخمرة وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل : شَرِبْتِها وربِّ الكعبة ، لولا الأمان لضربتُ بالسيف تحت قُرطك . أمَا وَجَدْتِ من الكلام غير هذا ؟

فقال جثامة أخوها (منافحاً عنها) : وهل أساءت ؟ إنما أجادت وليس غيرى وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضرّ أخته فى خلوتها مع أبيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت فى وصف الخمرة ، وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها . وإنما هى أديبة متقنة لصنعة الكلام وقرض الشعر فهى إنما تدل فى شعرها على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل . لكن دفاع جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلا فرماه بسهم فأصاب ساقه وأنفذ الرحل . ثم شدّ على الجرباء فعقر ناقتها ، ثم حملها على ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء . ثم قال لولا أن تسبنى بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء : لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلنك . فلما قدموا على بنى القين ندم عقيل على فعله بابنه جثامة فقال لهم : هل لكم فى جزور انكسرت (يريد ناقة الجرباء التى عقرها) قالوا : نعم . قال : فالزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجزور . فخرجوا حتى انتهوا إلى جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برئ وألحقوه بقومه ، فلما كان قريبا منهم تغنّى :

أيعذر لاهينا ويُلحين فى الصِبى   وما هنّ والفتيان إلا شقائق

المراد بالصِبى اللهو الذى يكون فى زمن الصبى عادة : فقال له القوم إنما أفلتَّ (أو صوابه أبلَلْتَ) من الجراحة التى جرحك أبوك آنفاً وقد عاودتَ ما يكرهه . فامسك عن هذا ونحوه إذا لقيتَه لا يلحقك منه شر وعُرّ (العُر الجرب والعرب يقرنونه بالشرّ لأنه يتلف إبلهم فكان أبغض شىء إليهم) فأجابهم جثامة : إنما هذه خطرة خَطَرَتْ ، والراكب إذا سار يغنّى) انتهى نص المعجم .

فقول جثامة : أيُعذر لاهينا الخ إنما جاء فى خبر رجوع عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بنى مروان المقيمين فى الشامات كما هو فى معجم البلدان ولم يجئ فى خبر تزويج جثامة أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء . وقد تبين من هذا أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين .

وفى الخبر الثانى الذى جاء فى معجم البلدان وصف لنفسية عقيل بن علفة الجاهلى الجافى الطبع ونفسية ولدَيه الناشئين فى الاسلام وقد فهما منه (أى من الاسلام) أنه لا يشدد النكير على متبعيه إلا فى ارتكاب منكر أو استباحة حرام . أما أن تقول الفتاة المسلمة الشعر وتحسن صنعته وتصف الخمرة بما جعله الله فيها من تأثير فى جسم شاربيها فلا يراه ذلك الفتى المسلم حراما ، وإنما الحرام شربها فهو الذى يجب تجنبه ، ولذا وقف فى جانب أخته ينافح عنها . ويدرأ صولة أبيه الجاهلى عليها ويرفع صوته — كما علمه الاسلام — بان للفتيات الحق فى تناول متع الحياة المباحة كما للفتيان . وانه كما يعذر اللاهى من الفتيان ينبغى أن تعذر اللاهية من الفتيات : فلا يعذرون هم ويلحين هن بغياً وعدوانا إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً . وقد جاء هذا الشعر الذى تمثل به جثامة قولا شارحاً للاثر المأثور : « النساء شقائق الرجال » .

« دمشق »

عبد القادر المغربى

على ذكر الحرب الأهلية فى اسبانيا

نهضة العلوم الطبية

فى اسبانيا العربية وتأثيرها فى اوربا

للدكتور زكى على

من بين الكتب التى ظهرت أخيراً عن الحرب الأهلية المروعة القائمة فى اسبانيا الآن كتاب « الثورة فى أسبانيا » قال فيه مؤلفاه هارى جانس وتيودور رابارد فى معرض الكلام عن ماضى اسبانيا : « إن طرد العرب من اسبانيا كان كارثة على مدنيتها وقد كان الباعث عليه التعصب للروح الاقطاعية السائدة فى أوربا والرغبة فى تقويض دعائم الثقافة العربية وتأثيرها »

وقد أعادت الحرب الحاضرة فى أسبانيا ذكريات تاريخها الماضى وكيف كان عهد العرب أزهى عصورها ، وكثيراً ما أشارت صحف أوربا إلى ذلك الماضى إما بالمقالات أو بالصور . وأذكر أنى رأيت صورتين رمزيتين تبعثان فى النفس مزيد الاعتبار إحداهما فى صحيفة أمريكية تمثل « عودة العرب » والأخرى على غلاف مجلة سويسرية مصورة تمثل « العرب على أبواب مدريد » إشارة إلى انتظام فرق من عرب المغرب الاسبانى فى سلك جيش الجنرال فرانكو لفتح اسبانيا ، ولكن شتان بين الفتحين ، وما أعظم الفرق بين العهدين . ولست بصدد الكلام عن تاريخ الفتوحات والحروب وإنما أحببت اتخاذ الأحوال الحاضرة وسيلة للتذكير بما كانت عليه أسبانيا من النهضة على عهد العرب قاصراً الكلام على العلوم الطبية وما كان لها من تأثير ونفوذ فى الحركة الفكرية فى أوربا فى ذلك الحين وهى التى صارت أساس نهضتها فيما بعد .

كان لتألق نجم الثقافة العربية فى سماء اسبانيا على أثر الفتح الاسلامى أعظم الأثر فى نهضة العلوم الطبية لا فى اسبانيا وحدها بل فى أوربا بأجمعها . وكان لما أولاه الخلفاء العلوم والفنون من العناية والتشجيع فضل كبير فى ازدهار الحركة الفكرية والنشاط العقلى وانبعاث أضواء الحضارة العربية لتسرى فى سائر أنحاء أوروبا ، وسرعان ما أصبحت اسبانيا أسطع درة فى سلسلة الثقافة العربية الممتدة من ربوع الهند إلى أقصى غرب أوربا ، وعن طريق هذه الحلقات المتصلة من مدنية الاسلام تدفقت الكنوز الضخمة من علوم الأقدمين التى كانت نسياً منسياً قبل أن يبعثها العرب ويضيفوا إليها كنوزاً غنية جديدة بفضل عبقريتهم وأثر الاسلام فى حضهم على البحث وحثهم على الكشف والدرس والتحصيل

وما أتى القرن العاشر للميلاد حتى كان العرب قد أحضروا إلى أسبانيا مجموعة ضخمة من التآليف العلمية والطبية الاغريقية والعربية ، ووضعوا بذلك أساس الحركة الفكرية التى دامت فى عصرها الذهبى من القرن العاشر ، إلى الثالث عشر ، وجعلت اسبانيا فى ذلك الحين ، المركز الوحيد الذى يشع على أوروبا النور والعرفان ، والذى سرت منه الثقافة العربية ، حتى صارت ملموسة الأثر فى سائر أنحاء الغرب

ونبغ فى هذه الحركة طائفة كبيرة من علماء العرب وشخصياتهم الطبية البارزة ، وكان لأعمالهم وتواليفهم أثر مباشر فى نهضة العلوم الطبية لاسيما أن الخلفاء أكثروا من تشييد المستشفيات ، وكانوا يلحقون بها المدارس الطبية ومدارس الصيدلة والمكاتب العلمية .

وقبل أن نخص بالذكر هنا أشهر البارزين فى هذه النهضة نشير إلى مايدل على مبلغ حضارة أسبانيا وازدهارها تحت حكم العرب ، فنذكر أنه فى القرن العاشر بلغ عدد سكان قرطبة أكثر من ثلاثمائة نفس ، وكان بها خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد ومكتبة ضخمة تحوى ستمائة ألف مجلد وسبعون مكتبة خاصة . وإذا ما أشرنا فى هذا المقام إلى جامع قرطبة الشهير ، الذى يعتبر من ايات الفن - لا فى العصر الاسلامى وحده بل فى كل العصور - فإننا نذكر الكلمة الشهيرة التى وجهها شارل الخامس سنة ١٥٢٦ إلى مجلس الكاتدرائية الكاثوليكية توبيخا لهم على تشييد الكنيسة فى قلب الجامع العظيم ، إذ قال لهم : « قد بنيتم هنا ما تستطيعون ، وكل واحد سواكم - بناءه فى جهة أخرى ولكنكم خربتم ما كان فريدا فى العالم كله »

وفى صدد الحضارة العربية أيضا يقول الطبيب المؤرخ الأمريكى فكتور روبنصن صاحب « قصة الطب » : « كانت أوروبا فى ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة ، كانت أوروبا قذرة ، بينما قرطبة شيدت ألف حمام ؛ كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ؛ كانت أوروبا غارقة فى الوحل ، بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ؛ كانت سقوف القصور فى أوروبا مملوءة بثقوب المداخن ، بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة ؛ كان أشراف أوروبا لا يستطيعون إمضاء أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس ؛ كان رهبان أوربا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة

قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة . »

والآن نعود لنذكر بين متقدمى المشاهير فى النهضة الطبية ابن الوافد الذى اشتهر فى أوربا باسم Abru Gue Fit (٩٩٧ - ١٠٧٤) وكان طبيباً بمستشفى طليطلة وامتاز بانه وضع أساس طريقة عقلية للعلاج مرتكزة على النظم الغذائية . وكان أشهر مؤلفاته كتاب الأدوية البسيطة De Medicamentis Simpzicibus طبع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللاتينية أكثر من خمسين مرة . ثم هناك أبرز شخصية فى النهضة الطبية العربية وفخر الجراحة العربية أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الذى عرفته أوروبا باسم Albucasis (١٠١٣ - ١١٠٦) وإليه يرجع الفضل فى النهوض بمهنة الجراحة إلى المركز اللائق بها وكانت قبله قد انحطت إلى الحضيض ولكن سرعان مابلغت الجراحة على يد أبى القاسم الزهراوى أعلى مراتبها فى ذلك العصر فانه ألف فى الطب النظرى والعملى كتابه الشهير « التصريف لمن عجز عن التأليف » وبه قسم خاص بالجراحة يقع فى ثلاثة كتب استوفى فيها أبو القاسم علوم الجراحة وعملياتها وبين آلاتها بالصور فكان تأليفه هذا أول كتاب موضح بالصور والأشكال فى الجراحة . ولا أجد فى هذا المقام قولا أدل على مكانة الزهراوى من قول الأستاذ الشهير فورج Forgue من أعظم الجراحين الفرنسيين فى الوقت الحاضر إذ كتب عنه منذ سنوات : « يعتبر الزهراوى بلا شك أعظم شخصية فى الجراحة العربية ، وهو الحجة التى كان يلجأ إليها كافة مؤلفى الجراحة فى العصور الوسطى مع أعظم الاحترام . وقد ولد فى الزهراء (من ضواحى قرطبة) التى كانت فرساى خلفاء بنى أمية فى الأندلس . ويستحق كتابه فى « الجراحة » أن يبقى فى تاريخنا كأول تأليف فى الجراحة على أنها علم مستقل مؤسس على قواعد التشريح . وصار كتابه فيما بعد مرشد الجراحين منذ ترجمه إلى اللاتينية حوالى وسط القرن الثانى عشر جيرار دى كريمونا . ومما يبرهن على أن الزهراوى كان الثقة والعمدة فى الجراحة والمشار اليه فى علومها أن سلفنا العظيم جى دى شولياك جراح مونبليه استشهد بأبى القاسم فى مؤلفاته نحو مائتى مرة !

« ولا مراء فى أن الجراحة العربية فى ذلك الحين تقدمت تقدماً عظيما فى الغرب . ويكفى أن نذكر أنه فى أواخر القرن الثالث عشر لما قدم الجراح لا نفرانك من إيطاليا ودرس مؤلفات أبى القاسم أصدر رأيه فى جراحى باريس لذلك العهد بقوله : « يقومون بالعمليات الجراحية مع درجة من الجهل يكاد لا يوجد معها شخص واحد منهم يمكن أن يعد جراحاً حقيقياً ! وقد كان أبو القاسم أول من كتب فى علاج الأقواس الضرسية (فى طب الأسنان) وتشوهات الفم ، وأول من ربط الشرايين قبل امبرواز باريه الفرنسى . وقد وصف عمليات تفتت حصاة المثانة وعملية استخراجها بالشق ، وتكلم عن مسألة التقيح ووصف الوضع المعروف باسم « وضع والحز » فى التوليد ، والشلل عقب كسر السلسلة الفقرية ، وتكلم بدقة عن إزالة الأجسام الغريبة من الأذن ، وأجرى عملية فتح قصبة الرئة Trachéo tomie ، وعالج الخراجات الكبيرة - بشقها وتفريغها تدريجاً ، واستعمل محلول الملح فى علاج الجروح ، ووصف علاج الناسور بالكى . وهو أول من استعمل « السنارة » فى استخراج الورم المسمى « بوليبوس » ، وتكلم فى موضوع الولادة عن مجىء الجنين فى الأوضاع غير المنتظمة ، وعن التوليد بالآلات . وهو أول من أدخل استعمال الحرير وأوتار العود بهيئة خيوط للربط فى العمليات الجراحية ، وتكلم أيضا عن وقف النزف بالكى ، وقد بقى كتاب أبى القاسم فى « الجراحة » أساس التعليم الجراحى ومزاولة مهنة الجراحة فى أوربا عدة قرون ، ونشرت ترجمته فى فينا سنة ١٤٩٧ ؛ وفى سنة ١٥٠٠ كان المعول عليه فى تعليم الجراحة فى مدرسة البندقية بايطاليا ، وطبع أيضاً فى « بال » بسويسرا سنة ١٥٤١

وأما أشهر أطباء العرب الاكلينكيين فى الأندلس فهو محمد بن مروان بن زهر الاشبيلى وعرف فى أوربا باسم Avenzoar (توفى سنة ١١٦٢) وهو ينحدر من عائلة عربية عريقة أنجبت كثيراً من الأطباء وذاعت شهرته الطبية فى جميع الأنحاء . وهو أول من ثار على طريقة جالينوس وابتكر طرقا جديدة تدل على عبقريته ؛ وأهم كتبه « التيسير » وفيه وصف شامل لأمراض عديدة . وكان ابن زهر أول من وصف التهاب التامور المصلى وخراج المنصف الصدرى وشلل البلعوم والتهاب الأذن الوسطى . ووصف لبن الماعز فى الدرن ، ويعتبر أيضاً أول عالم بالطفيليات لأنه أول من أتقن وصف حيوان الجرب .

وأما أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد (Averroes) القرطبي (١١٢٦ - ١١٩٨) الطبيب الفيلسوف العظيم فمع أنه بلغ ذروة الشهرة كفيلسوف الاسلام وشارح أرسطو فقد كان له أيضاً فضل لاينكر فى تقدم العلوم الطبية ؛ وهو الذى هز بناء التعاليم الجالينية من أساسها ، وزعزع نظرية صفة الأدوية الكثيرة Polypharmacie فى التذاكر الطبية ، وهو أول من أشار إشارة علمية إلى الدورة الدموية فى كتابه « الكليات » فسبق بذلك وليام هارفى . ومن أعظم الشخصيات الأندلسية فى القرن الثانى عشر الفيلسوف الطبيب الاسرائيلى موسى بن ميمون (Maimonides) الذى صار فيما بعد طبيباً خاصاً لسلطان صلاح الدين ، وله مؤلفات

عديدة فى الفلسفة والطب ترجمت من العربية إلى اللاتينية ومنها كتابه فى « السموم والتحرز من الأدوية القتالة » وكتاب « البواسير » (وترى هنا صفحة من هذا الكتاب الأخير عن نسخة خطية نقلت عن الأصل الذى كتبه ابن ميمون بيده) وكتابا « الوصايا » فى التغذيه وقانون الصحة و « بيان الأعراض » و « مقالة فى الربو » الخ

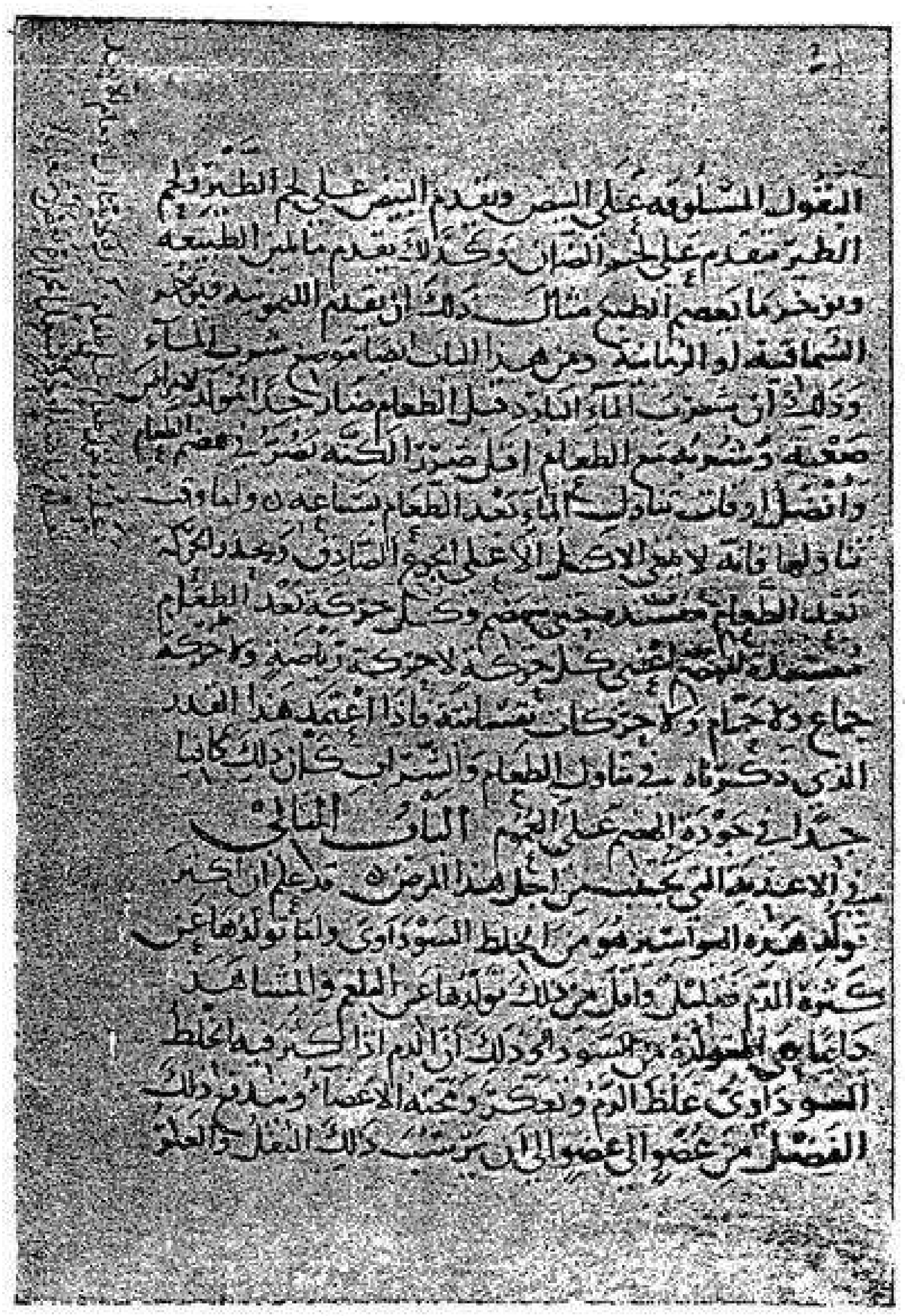

ويمتاز ذلك العصر بازدهار فن الصيدلة ايضاً وظهور التواليف العديدة فيه . واسم « ابن البيطار » أشهر من أن يذكر ، وقد ولد أبو محمد عبد الله بن احمد بن البيطار فى « مالقة » ، وصار أوحد زمانه فى علم النبات وأتقن دراية كتاب « ديسقوريدس » الاغريقى اتقانا بالغاً وكان حجة لا يبارى فى علوم الأدوية المفردة والحشائش ، وأهم كتبه « الجامع فى الأدوية المفردة » ، وهو فريد فى بابه إذ يشتمل على وصف دقيق لأكثر من ألف واربعمائة عقار كان جزء كبير منها جديداً فى ذلك الوقت ، وصار هذا الكتاب فى الواقع المرجع الأساسى فى أوروبا للمادة الطبية وعلوم الأغذية .

أما كتب الأدوية المركبة فكانت تسمى الأقرباذين (مأخوذة عن اليونانية) وهو اسم حرف فيما بعد فى المخطوطات اللاتينية المترجمة عن العربية إلى كلمة Grabadin والعرب هم أول من وضع دساتير الأدوية المعروفة الآن باسم « فارماكوبيا » ، وعنهم أخذتها أوروبا كما أخذت عنهم عادة وضع الأوانى الزجاجية الكبيرة المحتوية على السوائل الملونة عند مدخل الصيدليات وكان نظام الصيدلة عند العرب يقضى بالتميز بين مخازن العقاقير (ويقابله الآن Droguerie) لبيع العقاقير البسيطة بحسب تعريفة محددة وبين الصيدليات (الأجزاخانات) (Pharmacie) لصرف العقاقير المركبة والتذاكر الطبية وكانت كلها موضوعة تحت الرقابة الشديدة بمقتضى القانون . وقد أدخل فردريك الثانى هذا النظام إلى أوروبا وأصدر سنة ١٢٣٣ قانوناً بقى نافذ المفعول زماناً طويلا فى صقلية ، كان يكلف الطبيب بمقتضاه أن يبلغ عن أى صيدلانى (صيدلى) يثبت له أنه يبيع أدوية فاسدة

وقد أخذت أوروبا عن العرب استعمال كثير من الأدوية الجديدة ذات المفعول اللطيف والتى أدخلها العرب فى المادة الطبية للعلاج مثل السنا المكى والراوند والتمر الهندى والمسك والقشبة Cassia والمسن والكافور وجوز الطيب والقرنفل والزعفران والشمر وعرق السوس . وعن العرب أيضاً أخذت أوروبا طريقة طلاء حبوب الأدوية بالورق المذهب أو المفضض وتقطير ماء الورد ، كما أن أوروبا مدينة للعرب بإدخال الجوز المقيء فى القرن الحادى عشر والأكونيت (خانق الذئب) وشرح تأثير الإرجوت (الجويدار) والحنظل والقنب الهندى والعنبر . وكان دستور الأدوية (الفارماكوبيا الاسلامية) فى اسبانيا يحتوى على أكثر من مائتى نبات جديد لم تعرفها أوروبا من قبل . ولا يزال كثير من الكلمات العربية الأصل مستعملة فى الصيدلة إلى اليوم منها الكحول والشراب والقلى Alkali والنفط Naphtha والبازهر (بنزهير be zoar) والجلاب jalap .

ثم كان من مفاخر المدنية الاسلامية إنشاء المستشفيات فى معظم المدن الكبيرة مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية ومرسية والمرية ومالقة وغيرها ، وكان نظام هذه المستشفيات وإدارتها وتجهيزها تجهيزاً وافياً على نسق لم تعرفه أوروبا فى ذلك العهد . وفضلا عن أن هذه المستشفيات كانت مراكز لعلاج الأمراض فقد كانت أيضاً معاهد للتعليم الأكلينيكى وأكاديميات للمعارف الطبية ، وكانت مجهزة بمكاتب طبية نفيسة . ويعزى إلى العرب أيضا الفضل الأول فى إيجاد المستشفيات الخاصة بذوى الأمراض العقلية ومن أهم تلك المستشفيات ما أنشأوه فى بلنسية ، وقد شهد جميع مؤرخى الطب بأن للعرب فخر معاملة هؤلاء المرضى بالرفق والشفقة والانسانية بينما كان « المجانين » فى أوروبا يعاملون إذ ذاك كالمجرمين يعذبون

ويضطهدون . وقد أعاد جوان جيلابرت جوفريه بناء مستشفى بلنسية للأمراض العقلية عام ١٤١٠

كذلك لما أراد فيليب الثانى عام ١٥٦٦ أن يعيد تنظيم المستشفيات فى مجريط (مدريد) أقام على أنقاض معهد سان لا زاروا (وكان فى الأصل مستشفى أسسه المسلمون) مستشفى جديداً باسم سان جوان دى ديوس ، وضم اليه مستشفى دى لا باز للأمراض المعدية ولذوى العاهات .

وقد أظهر أطباء العرب فى اسبانيا فى فهم الأوبئة والعدوى مقدرة وذكاء منقطعى النظير بين كافة أطباء أوروبا فى العصر القديم والعصور الوسطى ، يدلك على ذلك أنهم بحثوا منشأ الأوبئة وانتشارها بالعدوى . وقد ألف الطبيب الشهير ابن الخطيب من غرناطة (١٣١٣ - ١٣٧٤) كتاباً نفيساً عن (الطاعون) وصف فيه الطاعون الذى حل بأوروبا فى القرن الرابع عشر وذكر فيه أن وجود العدوى تثبته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملابس والأوعية والحلى (كالقرط فى الأذن) ومن شخص لآخر فى المنزل الواحد وباصابة ميناء سليم بوصول أناس مرضى من أرض موبوءة . . . ! »

وكذلك كتب « ابن خاتمة » (توفى ١٣٦٩) كتابا عن الطاعون الذى فتك بالمرية فى اسبانيا فى سنتى ١٣٤٨ و١٣٤٩ ، وهذا الكتاب يفوق فى دقته كل ما كتب فى أوروبا عن الطواعين من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر .

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب فى ذكر سائر النوابغ من أطباء العرب فى ذلك العصر . وإنما ننوه بأنه كان من أهم عوامل بث العلوم الطبية العربية ونشرها فى أوروبا إنشاء مدارس الترجمة التى كانت أهمها مدرسة طليطلة التى شيدها فى سنة ١١٣٠ الأسقف ريموند وازدهرت حتى القرن الثالث عشر .

وكانت جامعات العرب فى اسبانيا إذ ذاك قبلة أنظار طلاب العلم من كافة أنحاء أوروبا فكانوا يفدون اليها من كل حدب وصوب لينكبوا على دراسة العلوم العربية وترجمتها ثم نقلها إلى بلادهم فظل النفوذ العربى سائداً فى الغرب قروناً عديدة وظلت تآليف الأطباء العرب مدة خمسمائة سنة برنامجا لدراسة الطب فى أوروبا .

ومما يدلك على مدى سريان النفوذ العربى وهيمنته على النهضة الطبية فى أوروبا أن الطبيب الشهير بطرس ألفونسو (ولد سنة ١٠٦٢) بعد أن أتقن الطب فى مدارس العرب فى اسبانيا قدم إلى انجلترا ليكون طبيباً خاصاً للملك هنرى الأول واشترك مع (والحز وبرايور أوف ما لفرن) فى وضع كتاب فى الفلك اعتمد فيه على المصادر العربية . وكانت جهود هؤلاء الثلاثة بمثابة أول أثر للعلوم العربية فى انجلترا ثم لم ينقض بعد ذلك وقت طويل حتى امتاز أديلارد أوف بات بكونه أول عالم أوربى كبير حضر إلى طليطلة للتخصص فى العلوم العربية ، فاتصلت بذلك الحلقة الثقافية بين اسبانيا العربية وانجلترا . ومن ثم ازداد اهتمام العلماء فى انجلترا بعلوم العرب وتفوق من بينهم ميشيل سكوت (١١٧٥ - ١٢٣٢) وروجر باكون (١٢١٤ - ١٢٩٤)

فأما سكوت فكان طبيبا وفيلسوفا ومتضلعا فى العربية ، وبعد أن درس فى اكسفورد وباريس انتقل إلى بالرمو وبولونيا بايطاليا ، ومن هناك واصل سفره فى طلب العلم إلى طليطلة ليروى ظمأه من ينابيع حكمة العرب وعلومهم وفلسفتهم ، واشتهر فيما بعد بتآليفه الكثيرة فى الكيمياء والفلك والطب وكان أكثر اعتماده على المصادر العربية .

وأما روجر باكون فقد اشتهر فى اكسفورد بكونه شارح الفلسفة العربية والارسطوطية وألف فى علم البصريات كتابا نقل فيه عن كتب الخازن ، وهناك فى مكتبة مجلس كاتدرائية كانتربورى نسخة خطية مزخرفة من أواخر القرن الثالث عشر تسمى Vetus togica هى أقدم تفسير معروف لكتاب ارسطو فى المنطق ظهر فى انجلترا على أثر احياء العرب لفلسفة ارسطو ، وهى تحمل اسم جون دى لندن الذى أخذ عن روجر باكون العلوم العربية .

ويرجع إلى العرب ايضا فضل المحافظة على تراث الطب الاغريقى القديم وهناك حقيقة ذات أهمية قصوى فى هذا الصدد وهى أن سبعة كتب من « تشريح جالينوس » وصلت أوروبا عن طريق ترجمتها العربية أما أصولها الاغريقية فكانت قد فقدت .

وكان أشهر المترجمين للعلوم الطبية من العربية إلى اللاتينية « جيرار دى كريمونا » ١١١٤ - ١١٨٧ الذى اشتغل فى مدرسة طليطلة معظم حياته وأتم فى العشرين السنة الأخيرة منها ثمانين ترجمة بعضها فى غاية الأهمية ، ومنها كتاب الجراحة لأبى القاسم الزهراوى وقانون ابن سينا ، وكتاب المنصورى للرازى ، وبعض أجزاء « الحاوى » .

ومن أعظم المترجمين والمفكرين من الأوروبيين فى العصور الوسطى جربرت دى أوريلاك (٩٣٠ - ١٠٠٣) الذى صار فيما بعد البابا سلفستر الثانى فانه عبر جبال البرانس وأتى إلى طليطلة لتحصيل علوم المسلمين ونقلها إلى أوروبا القوطية ، ثم إنه عاد إلى فرنسا وأذاع علوم العرب فى مدينة (ريمس) ثم نقل تلك العلوم إلى أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ويعتبر أحد واضعى أساس النهضة العلمية والأدبية والدينية فى أوروبا فى القرن الحادى عشر ويقال إنه الذى أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية .

ومن بين مشاهير الذين حضروا من انجلترا إلى طليطلة روبرت

أوف إنجلاند ، (عاش حوالى ١١٤٣) وهو أول من ترجم القرآن ثم دانيل مورلى (١١٧٠)

وكان ارنولد دى فيلا نوفا (١٢٣٥ — ١٣١٣) آخر العلماء الاسبان الذين كان لهم نصيب وافر من ترجمة مؤلفات العرب الطبية إلى لغات الغرب ، وقد صار فيما بعد طبيباخاصا لبطرس الثالث ملك أرغون ، ودرس الطب فى جامعة مونبليه ونقل عن العرب استعمال الصبغات فى الأدوية ، وأدخلها فى دساتير الأدوية الأوربية ، كما أنه ترجم كتاب ابن سينا عن القلب

وقد أنار العرب لأوربا سبيل الدراسة المبنية على التجربة والمشاهدة ويقول مؤرخ مونبليه الشهير جرمان (الفرنسى) إن بقاء مؤلفات الأطباء العرب فى برنامج الدراسة الطبية فى مونبليه حتى ختام القرن السادس عشر خير شاهد على صفات الايضاح والتنوير وعلى الطريقة التعليمية التهذيبية التى امتاز بها الكتاب العلميون فى الأمة العربية ،

وتوجد فى سجلات كلية الطب بباريس قائمة جرد للكتب الطبية بها فى سنة ١٣٩٥ تحتوى على اثنى عشر مجلدا كلها مؤلفات لأطباء العرب.

وكان لويس الحادى عشر دائم القلق على صحته ولهذا كان حريصاً على أن تكون فى مكتبته كتب « الرازى » الطبيب العربى الأشهر ولم يكن منها إذ ذاك فى مكتبة مدرسة الطب بباريس سوى نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط أن يردها وقد فعل !

وأرى فى ختام هذا البحث أن أذكر كلمة المؤرخ « لبرى » : « ولو لم يظهر العرب فى التاريخ لتأخرت نهضة العلوم والفنون (الرينسانس) فى اوروبا قروناً عديدة » .

(جنيف) **زكى على**

فى أصول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب ، أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم . تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . وقواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ .

يطلب من ادارة مجلة الرسالة وثمنه ١٢ صـ

الفداء

للأستاذ أمجد الطرابلسى

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم »

قرآن كريم

شعّ من بَسمةِ الصباحِ الضّياءُ … وأفاقتْ من نومها البطحاءُ
وتعرتْ كثبانُها والرّوابى … وتغطّتْ هضابُها السّمراء
وتبدّتْ ذُكاءُ فانتفضَ الرّمْـ … ـلُ ابتهاجاً لمّا تبدّتْ ذُكاء
وشّتِ الأرضَ بالظلالِ فنوناً … هىَ للطّرْفِ والنهَى إغواء
فمن الشمسِ والرمالِ نُضارٌ … ومن الظلّ واحَـةٌ غنّاء
السهوبُ الفِساحُ ، والأفقُ الزّا … هى ، وتلكَ الغمائمُ الشقْراء
والخِضَمُّ الموّاج بالماسِ والتبْـ … ـرِ المصفّى والقبّةُ الزرقاء
والبطاحُ الغرْقَى ، وسِلْسِلةُ الكُثْـ … ـبانِ ، والرّمْلُ ، والحصَى ، والسّناء
صورةٌ تغمرُ العيونَ وسِحْرٌ … عبقرىٌّ ، ومُتعةٌ ، ورُواء
وَحشةٌ ملؤها الجمالُ وصمتٌ … خاشعٌ لاتشينُهُ ضوْضاء
أيها الشاعرُ اتّئدْ ! هل تؤدى … ماتؤدّي الطبيعة الخرساءُ ؟
إنّ صمتَ الرّمال عودٌ ومِزما … رٌ ونأىٌ ومِزهرٌ وحُـداء
نَغَمٌ يُفْعِمُ المسامِـعَ سِحْراً ، … وغناءٌ ، هيهاتِ منه الغناءُ !

* * *

مَنْ هوَ السالكُ القفارَ وئيداً … للأسى فى جبينه سيماء ؟
كاسفَ البالِ ليس يَبْهَرُهُ الحسـ … ـنُ ، ولا يستبيه ذاكَ البهاء
مطرقاً رأسهُ الصديعَ تبدّى … في أساريرِ وجههِ البأساء
وإلى جنبهِ ابنهُ حائرَ اللبّ … م تنزّى فى صدرهِ الأهواء
يتأسّى خُطَى أبيـهِ وللِحمْـ … ـلانِ بالشاةِ أسوةٌ واهتـداء
يسألُ الرّملَ عن وجوم أبيهِ … فاذا الرّمل منصتٌ والفضاء

يسألُ الأرضَ والسماءَ فما تنـ   ـبيه أرضٌ ولا تجيب سماء !
وتراه يَهمُّ يسأل عن ذا   كَ أباه الحزينَ لولا الحياء
يا إلهى ! هذا خليلُكَ إبرا   هيم يغدو لما أرادَ القضاء
وإلى جنبه ابنُه البرُّ إسما   عيل سلواه فى الدُّنى والعزاء
جاءه وحيُك المقدَّسُ فى اللي   ل وقد عمَّت الدُّنى الظلماء
قال « قرِّبْ إلى السماءِ القرابـيـنَ ، فقد شاقت السماء الدماء
إنها تبتغى وحيدكَ ذبحاً   ليسَ فى غيرِه لها إرضاء ! »
هبَّ من نومه الشرودِ مُراعاً   ونأى عن جفونِه الاغفاء
إنما تطلبُ السماء فتاه !   ليسَ مما تبغى السماء نجاء !
قد قضى الله ما أرادَ وأمضى   وقضاء اللهِ الرحيم مَضاء
ليكن ما أرادَ سوفَ يضحّى   بابنِه وهو عيشُه والهناء . .
يارحيمَ الأكوانِ احكمتُك الغرّا   ء ، حارتْ فى كُنهها الحكماء
إنّ أضرى الجراحِ يارب ماعا   ناه فى الأرض رسْلُكَ الخلصاء
أنت قدّرتَ أن يعذَّب فى الار   ض نبىٌّ ، ويَسعد الأغبياء !

* * *

طالَ سيرُ الفتى وناءت قواه   وعراهُ بعد النشاطِ وَناء
أينَ يمضى به أبوه ولا زا   د لديهِ ، وليس فى القفر ماء
ألفيافى ممتدّةٌ كالأمانى   لا تناهى وكلها جَرداء
فإلامَ السيرُ المضُّ وما لِلـ   ـقفرِ من أوّل وليسَ انتهاء ؟؟ ...
وتجرّى وقال يستطلِعُ السرَّ   وقد آده الونى والظماء
وشجاه الصمتُ الطويلُ ، وللصمـ   ـت على القلب غمةٌ دكناء :
« أبتى طالَ سيرنا وعرانى   نصبٌ منه مُرْمضٌ وعناء
أين نبغى ؟ لعلنا قد ضللنا   نهجَنا ! أين قصدُنا والرجاء ؟
أبتاهُ كلّت يداى ورجلا   ىَ ، وأدمتْ أصابعى الحصباء
مِلْ إلى الظلِّ نستجِمّ قليلا   فلقدْ هدَّ قوّتى الاعياء ! »
فأجابَ الأبُ الرحيمُ يواسيـ   ـه وقد شفّه الأسى والشقاء
باسماً يمنع المدامع أن تجـ   ـرى ، وأن تستفزّه البرحاء :
« ياصغيرى الحبيبَ ، كيف خبا عز   مُكَ ، أين الثبات أين المضاء ؟
غايةُ السير ذروةُ التل هـذا ،   وعليه المقيلُ والارساء
فوقه يا بنى تؤسى الجراحا   ت ، وتلقى الجهود والأعباء
فوقه يابنىَّ يرقُبنا العطف   من اللهِ ربِّنا والرضاء »
فاستحى الطفل من أبيهِ وأغضى   منتهى البثِّ والأسى الإغضاءُ
ثمّ سارا وفى الفؤادين نارٌ   وأحاديثُ جمّةٌ وبكاءُ ! ...

* * *

واستوتْ فى سمائها الشمس عجباً   وتلظّتْ من وقدها الرمضاء
وتغنّتْ فيها الجنادبُ فَرحى   وعليها من الرمال خِباء
سكنتْ خطرةُ النسائمِ فالأر   ضُ لهيبٌ والأفق والأجواءُ
وأناخَ الخمولُ كَلكلَهُ المُضْـ   ـنى ، وأغفتْ كالمتعب البيداءُ
فبكى الطفلُ لا يحيرُ شكاةً   والفيافى عن بثّه صماءُ
مُطرِقا رأسَه الصغير ليخفى   عن أبيه البُكى ، وكيفَ الخفاء؟
وأبوه الساجى يُسارقُه اللحـ   ـظَ فتنزو فى صدره الأدواءُ
مَشهدٌ يمنعُ القوافى منَ الجر   ى وَتعيا عن وصفه الشعراء !
إيه دمعَ البنينَ ماذا يعانى   ويقاسى مِنْ سكبكَ الآباء !؟
رحمةً للأب الشفيق وللأ   م إذا ما تباكتِ الأبناءُ !

* * *

مَسحَ الطفل أدمعاً فوق خدّيـ   ـه وأهدابه لها لألاءُ
قائلاً والشحوبُ فى وجهه با   دٍ كمن قد براه داءٌ عياء :
« يا أبى قد دنا المكان وفيه   للمهيض الهناء والنعماءُ
هو ذا المذبحُ المقدّس والحبـ   ـلُ ، وهذى سكينك العوجاء
وعلى منكبىَّ محرقةُ الذبـ   ـح ، فأين الضحيّةُ القرناء ؟
أتُرى قد نسيتها أم تراها   سبقتنا بها إليه الرعاء ؟ »
صُعقَ الوالدُ الوجيع وسالت   عَبرةٌ فوق خدّه عصماء
وأجاب ابنَهُ مُشيحاً بوجهٍ   غضّنته السنون والأرزاء :
« ياصغيرى هناك يرقُبنا القر   بان ، لا يقعدَنْ بنا الابطاء
لنحثّ الخطى إليه سراعاً   فسيخلو لنا هناك البقاء »
إيه ياموكبَ الجلال الذى ما   دت له من خشوعها الصحراء !

فالروابى ذواهلٌ مطرقاتٌ   والنُّسَيْمات حوله سَجواء
إنَّ هذى الدموعَ ضجَّت لها الدنيا ، ورُجَّتْ لسكبها الأرجاء
وأجل الدموع ما يَذرف القلب ، وتعيى عن حبسه الكبرياء
الفتى خافتُ الأنين صَموتٌ   قد بَراه طول المَدى والجفاء
وأبوهُ يبكى عليه حناناً   يا لَدَمعٍ تَسُحُّه الأنبياء !
يا لدمعٍ تهزُّهُ رحمةُ القلبِ ، فيُبقيه مِ الجفونِ الاباء !

***

ذاكَ إبليسُ فتنة الشَّرِّ والآثام ، مَنْ كلُّ همِّه الاغواء
ساءهُ أنْ يفوزَ ما أمر اللّهُ ، وأنْ يُخذلَ الخنا والرِّياءُ
فأتى هاجَراً يُنَبِّئُها الأمرَ ، وإبليسُ ساعداه النِّساء
قال : « فيمَ الثواءُ يا أمَّ إسماعيلَ ، والثُّكلُ بيِّنٌ والشقاء
لستِ تدرين مايحيك لكِ المِقدار ، نامت عن حظِّها الأشقياء !
قد غدا بابنكِ المحبَّبِ إبراهيم تحدوهُ جُنَّةٌ هوْجاء
زاعماً ـ والالهُ أعول من أنْ   تَصطلى نارَ سُخطِه الأبرياء ـ
أنَّ وحياً أتاهُ ، فى الليلِ ، والناسُ نيام ، والأرض والآناء
ودعاهُ ليذبحَ الطفلَ صبراً !   تلك رُؤيا كذوبة شنعاء
أسرعى ! أنقذيه ! من قبل أن تُروى بقانى دمائه الغبراء . . . »
فأجابته وهى تُخفى أساها   ولَظاها : «لن يكذبَ الإيحاء !
إن يكن ذاكَ ما أرادَ إلهى   فهوَ الخير كله والهناء »

***

إيه إبليس ! خاب فألكَ يا مِسكينُ ! ما كلُّ غادةٍ حوّاء !

***

وصلَ الوالد الحزين ، ولكن   ودَّ لوْ طالَ سيره والعناء
وابنه من ورائه مُثقَل الخطوِ ، تلظَّى فى صدره الصُّعداء
رازحٌ تحت عِبئه لاهث الصدر ، وللظهر كالمسِنِّ انحناء
حطَّ عن منكبيه وهو يجيل الطرفَ : أين الخراف ، أينَ الظباء !
نظرَ الطفل حوله ، فاذا الأرض خلاء من الأضاحى قَواء
وتحرَّى فلم يجد حوله الذبحَ   ولا هزَّ مسمعيه ثغاء
فرنا ثائرَ الشكوك ، وفى عينيه شوق للسرِّ واستقصاء
وأبوه يحار فى فمه النطق ، وفى الرزء تبكم البلغاء
شدَّ من حزنه على قلبه الواهى ، وعشَّتْ عيونه الضرّاء
وتهاوت دموعه مثل ما رفَّت على زنبق الربى الأنداء
ربِّ رحماك ! مايقول ؟ وما يفشى ؟ وكيف المقال والإفشاء ؟
هبْه يارب من لدنك بياناً   فلقد يعقد اللسانَ البلاء !
قالَ يانورَ مُقلتىَّ ويامن   هو عيشى وسلوتى والرجاء
ياوحيدي ! يا مائلى ! يا سراجى   ماتدَجَّتْ همومى الكدراء
طال ماقد كتمتُ عنك من السرِّ م وقد شاق سمعك الاصغاء
يارجائى ! ماذا أقولُ ؟ وهل للنطق في زحمة الدموع غَناء ؟
كلما همَّ بالكلام لسانى   أبْبَسَتْه المصيبة السوْداء !
أترى أنتَ إن ذكرتُ لك الأمرَ مطيعى أم غاضبٌ أبّاء ؟
جاءنى الوَحى فى المنام بأمرٍ   ليس فيه دفعٌ ولا إرجاء
قال لى : اذبحْ غداً وحيدَك ، يالأهوْل تنزو لذِكره الأحناء
يابنىَّ ! انظرْ ماتراهُ ، ولا تأخذك بى غضبةٌ ولا استهزاء
ليت شعرى ! أذاك أمرُ إلهى   أم تُرَى تلكَ لوثتى الحمقاء ؟ »

***

فاقشعرَّ الفتى كما انتفضتْ فى   خَطرة الرِّيح وردةٌ حسناء
وسَرَت رهبةُ الرَّدى فى مُحياهُ ، ورفَّت غمامةٌ صفراء
ودَّ لو يكتمُ الأسى عن أبيهِ ،   كيف يخفى عن العيون الداء ؟
رعدةُ الموتِ ماتخلَّصَ منها   فقراء قضوا ولا أمراء
إنما الموتُ حيثما حلَّ فى الكوخِ وفى القصر غمَّة وبلاء
هو للشَّيبِ مثلما هو للأطفال ، غُولٌ ، وحيَّةٌ ، رقطاء
وأجاب الفتى يواسى أباه   لو يفيد العزاء والتأساء !
« أبتاه ! هوِّن عليك ! فانى   لستُ ممَّنْ من القضاء يُساء
حبذَا مصرعى بكفِّك إمَّا   كان فيه لربِّنا إرضاء
أبتاه ! افعلْ ما أمرت ولا تأخذك بى رحمةٌ ولا أهواء
أنفِذ الوحىَ يا أبي ! هل يطيع اللّهَ إلا المعاشر السعداء ؟

أبتاه ! إن حان يومى فهل عنـ ـدهُ محيدٌ ، أو هل ليومى اتقاء ؟
أينا خالد على هـذه الأرْ ض ، وما للحياة فيها بقاء ؟
لا تهنْ يا أبى هَلمَّ فأضجعْـــــنى من قبل أن يدبّ المساء
ثم عصّب عينىّ رفقاً بمنديـــــل ، فللموتِ سحْنة نكراء
واشحذ الخنجرَ المظمَّأ حتى تتلظّى شباتُه الحمراء
ثم ضعه على خناقى واذبحـ ـنى كما تُذبَحُ الظِّبا والشاء . . .
فإذا ما ذبحتنى وتروّت من دَمى هـذه الرمال الظماء
فاحترس أن يصيبَ كفك شىءٌ منه ، أو أن يبلَّ منك الرداء
وتجنب رَشاشهُ ، لا يهنْ أجْ ركَ فيهِ ، ولا يقِلَّ الجزاء
دعْـه للرمْل ينسربْ فى حنايا هُ ، ففيـه لحرِّها إطفاء
دعْـه يذهب كما تبدّدَ عِطرٌ فى الفضا أو تغيّبتْ أصداء . .
وإذا ما فرغتَ منّى وحالت بيننا ظلمةُ الرّدى السّحْماء
وأردت الرجوعَ بعدى إلى الدا ر ، فلى يا أبى إليكَ رجاء
ذاكَ ثوبى فانزعْهُ عنّى إذا مـــتُ ، وقد خضّبتْه منّى الدماء
واحبُهُ إذ تعود ذِكرى لأمّى فيـهِ سَلوةٌ لهـا وعزاء
إيه ! أمّاه لو علمت مصيرى وتبيّنْتُ ما تريد السماء
لتمنّيْتُ منكِ لثماً وتقبيـ ـلاً ، ولـكن هيهات منّا اللقاء !
لستُ آسَى إلاّ عليكِ من الدُّنيـــا ، ولولاكِ لم يرُعْنى العفاء . .
عذبَ الموتُ فى سبيلكَ يا ربُّ وساغَ البلَى وطاب الفناء
فمرور السكّينِ فى العنق لثمٌ ولهيبُ النيرانِ ظلٌّ وماء . .

* * *

أضجعَ الوالد ابنَه مثلما تُضْ جعُ شاةٌ وديعـةٌ خرساء
والفتى ساكنٌ كما نام فى المهْـ ـدِ تغنيه أمُّـه الحسناء
مُغمِضٌ عينَه على الدمع ، هل يبْـ ـديهِ إلاّ الأذلّة الجُبناء ؟
والأب الواله المعذّب تدوي ثائراتٍ فى صدْره الأنواء
قبّلَ الطفْلَ ثم عصّب عينيه وقد ينفَع البصيرَ الغطاء
تؤلم المبصرَ الدياجى وتنجو من قذاهن مقلة عمياء

وانتضى الخنجر الرهيب بكف أرعشتْها الفجيعـة الحمراء
مثلما أُرعشت بكأس الحميا كف صب مجنونة هوجاء
كاد يردى فتاه لولا هتاف فى السموات مطرب ونداء
وإذا بالسماء تلتمع الأنـ ـوار فيها وتسطع الأضواء
وإذا بالالحون ترقص فى الجوّ حبوراً وتهتف الأصداء . . .
رفع الوالد المعـذب عينـاً ملأتْهـا المدامع العصماء
فإذا بالدموع تضحك فى عيْـ ـنيه بِشراً وتنجلى الضراء
وتهزّ البشرى الرحيمة كفيْـ ـه فتهوى سكينه الصمّاء
ملك فى الفضاء يحمل كبشاً قد تعالى فى السُّحب منه الثغاء
هبط الأرض مثلما تهبط الروْ ض اشتياقاً حمامة بيضاء
فدية للصبى أرسلها الله تهادى يحملها البشراء
رحمة الله كم تداركتِ الخلْـ ـق وقد أعوزتْهم الرحماء !

* * *

ياخليل الرحمن هيا ارفع الطفـــل فقدْ ردّتهُ إليكَ السماء
واذبح الـكبْش يانبىُّ فِداء عظمَ المفتدى وطابَ الفداء
واسجدَا خاشعين شكر المنعم البرايا نداه والآلاء
رحمةُ الله تغمر المجرم العا صى ، فكيف الخلائق الأبرياء

. . . .

إيه شعرى قد تيّمتْك البطولا تُ وأغواك نورُها الوضّاء
غنّها فهىَ للجراحات مَلْهى وعزاءٌ وبَلْسمٌ وشفاء
وارْوها فالشّبابُ مُصغٍ لما تنـــشد قد هدَّه الأسى والداء
والزمان الشقىّ ساد به الشرّ وأخنى على بنيـه الشقاء
عُـذّبت فى جحيمهِ العبقريّا ت كما فاز بالنعيم الرِّياء . . .
غنّها ربمـا تعزّي جريحٌ أو تجافتْ عن ذلّها الجُبناء
سيَرُ الخالدين كمْ شبَّ فى أحـ ـضانها الخالدون والعظماء

دمشق

أمجد الطرابلسى

علم التاريخ عند العرب

للأستاذ عبد الحميد العبادى

التأريخ بالهمز والتاريخ بدون همز ، والتوريخ ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربى أصيل ، وقيل بل دخيل مأخوذ من أصل سريانى معناه (الشهر) ؛ وكانوا قبل الاسلام يوقتون بالنجوم والأهلة يكبسون الشهور إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية ؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما. فلما كانت خلافة ثانى الخلفاء أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا

هذا فى اللغة ؛ أما فى الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان. وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة بسيطة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ؛ وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة ؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها

فلما جاء الاسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استقصاء للسنة توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الاسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث . وأقدم من كتب فى موضوع السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ هـ ، وأبان بن عثمان ابن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ . ثم انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالى هما محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٢ هـ وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨ هـ ومختصره هذا هو الذى بأيدى الناس اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ ، وكثير من روايته مضمن فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ هذا إلى كتاب له فى مغازى الرسول مطبوع متداول

* * *

وفى أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ، ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الاسلامية على أيدى رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالى عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة بكل ذلك ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت اليه رغبة العلماء فى فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت فى الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ؛ هذا فضلا عن حرص الموالى على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء اليها عامة فى مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها فى تقدير العطاء للجند . وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» ، وعلى المتخصص فى روايته «الأخبارى» كما عرف المتخصص فى رواية الحديث «بالمحدث» . ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار فى رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدى المتقدما الذكر ، والمدائنى المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل

من هؤلاء كان محدثا وأخباريا معا . كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فى مثل محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ وكان مقدما فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧ وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ ، وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف ابن عمر المتوفى عام ١٧٠ وله كتاب كبير فى الفتوح ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ وله فى أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الاسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم فى كتاب الفهرست ، وقد طبع منها حديثا « كتاب الأصنام » .

وقد وجد فى تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى فى رواية الأخبار ، فكان لبعض الأقطار الاسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم : « قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره ، والمدائنى بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدى بأمر الحجاز والسيرة ، وقد اشتركوا فى فتوح الشام » .

على ان المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعا وأسمى منزلة من الأخبارى ؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث والى أن الأخبار وخصوصا قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق . ولقد بلغ الأمر بهم ان كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار ، فقد ضعفوا محمد بن إسحق وكان أصلا راوية للحديث . ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول . وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار . ذكر ابن خلكان « أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة ، يا أبا يوسف امن كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا ، وقعة بدر أو أحد ، فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه » .

* * *

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا فى أواخر القرن الثانى الموضوعات الأساسية للتاريخ عند العرب ، وهى أموراً أربعة : (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب قبل الاسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الاسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية فى المادة التاريخية ودقة وتحرراً فى مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الانشاء والجند والخراج والبريد ، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها فى بحثهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك . ثم إنه فى العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالى عام ١٤٠ لكتابى خدينامه وآيينامه فى تاريخ الفرس وأحوالهم ؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير الذى ترجمه إلى العربية البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩ ، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالى منتصف القرن الرابع . ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الاسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة . وعلى الجملة فإن مؤرخى القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسمية (٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية (٤) المشاهدة والعيان

وبتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً ، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الاسلامية كرجال لهم خطرهم فى الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضاءل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد النسمعانى المتوفى عام ٥٦٢ بقوله : « ويقال لمن يروى الحكايات

والقصص والنوادر الأخبارى ، نذكر من بين مؤرخى القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفى عام ٢٧٠ ، والبلاذرى صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفى عام ٢٧٩ ، واليعقوبى صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفى عام ٢٨٤ ، والدينورى صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ وابن جرير الطبرى صاحب تاريخ الرسل والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ

***

أخذت الوحدة السياسية التى انتظمت الدولة العباسية تتداعى من منتصف القرن الثالث ، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس فى مشارق الدولة ومغاربها ، وجرت اللامركزية السياسية إلى لامركزية أدبية ، فتوزعت الثقافة الاسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة فى حاضرة الخلافة وحدها . وناقست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان ، وغزنة والرى وبلخ وغيرها ، وكثر العلماء فى الأمصار كثرة عظيمة . كل ذلك أثر فى كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح فى كثرة ماظهر إبتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة ؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ ، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ ، والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى ، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان ، وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم ، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل

واستتبع التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الاسلامى فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجترءوا عليه واستباحوا حماه ، وبدت مقدمات ذلك فى استئساد الروم وانتقاصهم شمالى الشام فى القرن الرابع ، ثم أغار الصليبيون فى القرن الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق ، ولم تكد تلك الغمة تنجلى عن العالم الاسلامى حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهى غارة المغول ، فقضى على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الاسلامية فى القارة الأسيوية تدميرا

واتضحت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعيا أن ينحو المؤرخ الاسلامى في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيا عميقا فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الأسلام على الاطلاق . ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا للتاريخ فوضع فى ذلك الصفدى (٧٦٤) مقدمة كتابه الوافى بالوفيات ، والسخاوى المتوفى عام ٩٠٢ كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »

فيرى القارىء أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوى ، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر ، فلما نضب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجرى على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها

***

ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وفناء ؛ أما من حيث الطريقة العلمية التى اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها . فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما هى الحال فى رواية أخبار السيرة والاسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أومن بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الاسلام . فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة ، لاموضوعياً منصباً على المرويات . هذه الطريقة ضمنت

لهم إلى حد بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخي من السيرة وبحوادث الدولة الاسلامية، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك في أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة. والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هي أضعف وأغمض نواحي كتب التاريخ عند العرب.

واذا كان الأسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى. قال المؤرخ الانجليزي (بكل): ان التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوروبا قبل عام ١٥٩٧. على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع في توقيته خلط شديد واختلاف كثير. ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التي سبقت الاشارة اليها.

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك في تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة؛ فكتاب الأصنام مثلا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠. ومثل ذلك يقال في مغازي الواقدي وكثير غيره من كتب التاريخ. وتلك مبالغة محمودة في المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولا.

تلك طريقتهم في جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازي والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا في عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدي المتوفى عام ٢٠٧، ثم اتبعها من بعده الطبري وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء. والأخرى الترتيب على العهود، وقد جرى عليها اليعقوبي والدينوري والمسعودي وغيرهم.

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها: أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلا غير متكلف، وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما في العقود الأولى من تاريخ الطبري وفي بعض فصول ابن مسكويه والصولي.

ويمكن تلخيص أوجه النقص في طريقتهم في أمور ثلاثة: ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام، وادارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة في أبسط صورها، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجماعات أو بتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها

على أنه مهما قيل في نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك في صياغتها ما فاتهم. وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالاسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والإجتماع وتأريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم

عبد الحميد العبادي

التصوف الفلسفى فى الاسلام

للدكتور أبو العلا عفيفى

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سأعرض فى هذا البحث التصوف الفلسفى من ناحية نشأته والعناصر التى دخلت فى تكوينه لا من حيث مسائله ولا نظرياته، وإن كنت سأشير إلى بعض هذه النظريات اشارة سريعة مجملة ونشأة التصوف الفلسفى فى الاسلام متصلة بنشأة التصوف نفسه من جهة، وبنشأة الزهد الذى تقدم التصوف الفلسفى منه وغير الفلسفى

وربما خلط بعض الناس بين التصوف والتصوف الفلسفى من جهة، وبين التصوف والزهد من جهة أخرى؛ أو فهم الثلاثة أنها من المترادفات، وليس هذا بنادر الوقوع. أما الزهد فهو الناحية العملية من الطريق الصوفى؛ أو هو الحياة التى يحياها الصوفى، تلك الحياة البادية فى مظهرها الخارجى من تقشف فى المأكل والمشرب واعتزال للناس وانقطاع إلى الله، والبادية فى حياته الباطنة الروحية من خشية من الله وورع وتقوى وعبادة وصوم وصلاة وذكر وتهجد وهجر للدنيا وزخرفها. وأما التصوف فأصدق وصف له أنه طريق لتصفية النفس ومجاهدتها ورياضتها والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام والترقى بها فى خطوات بطيئة عسيرة حتى يصل بها صاحبها إلى المقام الذى يطلق عليه الصوفية اسم مقام الشهود أو الوجد أو الفناء — وهو المقام الذى يدرك فيه الصوفى — وفى هذه الحالة لافرق بين صوفى مسلم وصوفى مسيحى أو يهودى أو بوذى — يدرك من الحقائق ما لا سبيل للعقل الانسانى أن يدركه، ويتذوق من المعانى ما يكل اللسان الانسانى عن شرحه

وأما التصوف الفلسفى فهو الأساس الميتافيزيقى أو النظريات الفلسفية التى يحاول بها الصوفيون فى وقت صحوهم تفسير أو تعليل مايجدونه فى وقت سكرتهم أو فى حالة وجدهم

وقد وجدت هذه الأنواع الثلاثة فى الاسلام وظهرت فيه ظهورا تاريخيا متواليا بحيث يمكن اعتبار كل منها دورا من أدوار التصوف هو بمثابة المقدمة المنطقية للدور الذى يليه، فظهر الزهد فى القرنين الأولين من الهجرة، وظهر التصوف فى القرن الثالث، وظهر التصوف الاسلامى فى القرن الرابع وما بعده، ولم يأت القرن السادس والسابع حتى بلغ التصوف الفلسفى أقصى حده فى النضوج ثم ضعف شأنه بعد ذلك تدريجياً

أما الزهد فقد ظهر فى الاسلام قويا فتيا بمجرد ظهور الاسلام تقريبا؛ ذلك أن الاسلام دين ورحمة وزهد وتقوى؛ وليس دين دنيا وشهوات ولذات كما يصفه بذلك أعداؤه الذين يحاولون تعليل نشأة الزهد فى الاسلام بأنها راجعة إلى عوامل كلها خارجة عن الاسلام، ويخصون بالذكر من بين هذه العوامل المسيحية والرهبنة المسيحية التى كانت منتشرة فى صحراء العرب وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية

نعم لم يدع الاسلام الى الرهبنة، بل هو صريح فى إنكارها فى القرآن والحديث، ولكنه دعا الى العبادة والورع والتقوى والتهجد وقيام الليل والصوم والصلاة

نعم لم يذكر القرآن كلمة زهد ولا مادة الزهد الا فى آية واحدة فى سورة يوسف فى قوله تعالى «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» ولم يذكرها هنا على سبيل المدح ولا بالمعنى الذى نتكلم عنه، ولكنه وإن لم يذكر «الزاهد» فقد ذكر العابدين والسائحين والقانتين والمخبتين والركع السجود، وكل هذه من صفات الزاهدين

واذا كان الزهد طريقة للتقرب الى الله ومناجاته وذكره فقد وصف القرآن الله بأنه رحيم، وبأنه ودود، وبأنه قريب من عبده، بل إنه أقرب اليه من حبل الوريد، وبأنه سميع مجيب يجيب دعوة الداعى اذا دعاه

فلا حجة للقائلين بان فكرة الحب الالهى قد دخلت الى الزهد الاسلامى عن طريق المسيحية لأن الاسلام قد قضى على كل أمل فى الاتصال الروحي بين العبد وربه يوصفه الله بأنه جبار متكبر منتقم الخ

ظهر الزهد فى الاسلام اذن داعيا إليه الاسلام كما قلنا وداعيا اليه ظروف أخرى هي الظروف السياسية القاسية التى عاش فيها المسلمون فى عهد الخلفاء وعهد بنى أمية — فقد كان هذا العصر عصر حروب وفتن مستمرة وقلاقل واضطرابات — وفيه دخلت النظريات السياسية الى العقائد الدينية، وتدخل الحكام فى آراء الناس الدينية ومعتقداتهم، فاضطهدت الحرية وكبت التفكير الحر: فشعر من لم يميلوا إلى اعتزال الناس بضرورة العزلة وزهدوا فى الدنيا وزخرفها وفى الحكومة والحكام

أما الرهبنة المسيحية فقد كان لها أيضا أثرها فى الزهد الاسلامى لامن حيث أنها كانت السبب فى وجوده، بل من ناحية أنه تسرب الى طريقة المسلمين فى الزهد كثير من تقاليد الرهبان المسيحيين وعاداتهم وطقوسهم

بل إن القرن الثانى لم يكد ينتهى حتى انتظمت حركة الزهد الاسلامى داخل أديرة وصوامع أشبه بأديرة وصوامع المسيحيين: فأسست خانقاه فى دمشق سنة ١٥٠ هـ وأخرى بخراسان سنة ٢٠٠. ويقول عبد الرحمن جامى فى كتابه نفحات الأنس أن أول خانقاه أسست فى الاسلام كانت بالرملة بفلسطين أسسها فى القرن الثانى راهب مسيحى — وإن كان المقريزى يقول فى الخطط إن الأديرة لم تظهر فى الاسلام إلا فى القرن الخامس الهجرى — ولعله يقصد بذلك انتشار الأديرة فى البلاد الاسلامية لا مجرد وجود بعضها

وقد امتاز الزهد فى القرنين الأول والثانى — ولا سيما القرن الثانى بصدق الورع والتقوى وسلامة الايمان والخشية الشديدة من الله ومن عذاب جهنم، والأمل الشديد فى الحظوة برؤية الله فى الدار الآخرة، وكثرة المناجاة والكلام فى الحب الالهى

وقد تغلغل الزهد فى نفوس المسلمين العامة والخاصة على السواء، وظهر منهم فى القرن الثانى أمثال الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ وهو المؤسس لفرقة الصوفية بالبصرة، وابراهيم بن أدهم البلخى المتوفى سنة ١٦١، وداود بن نصير المتوفى سنة ١٦٥، والفضيل ابن عياض المتوفى سنة ١٨٦، ومن النساء رابعة العدوية التى توفيت سنة ١٣٥

وكانت رابعة آية من آيات الله فى الزهد: زهدت أولا فى الحياة الدنيا وزخرفها طمعا فى الآخرة وجنتها، ثم زهدت فى الجنة طمعا فى الفوز بمحبة الله ورضاه

وقد حل الحب الالهى من قلبها كل مكان فأصبحت لا تناجى سوى الله ولا تتحدث إلا إليه؛ وفى هذا يحكى شهاب الدين السهروردى فى عوارف المعارف أنها كانت تقول:

إنى جعلتك فى الفؤاد مؤانسى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسى

ويقول القشيرى عنها إنها كانت تقول فى مناجاتها «إلهى! تحرق بالنار قلبا يحبك؟»، فهتف بها هاتف: ما كنا نفعل ذلك؛ فلا تظنى بنا ظن السوء

***

أما القرن الثالث فدور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيقى. والواقع أن هذا الدور كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف. فى هذا القرن نجد كلمة «صوفى» شائعة الاستعمال ولم يكثر استعمالها قبل نهاية القرن الثانى خلافا لما ذهب إليه القشيرى، فلم يفرق الناس بين زاهد وصوفى لأنه لم يوجد من الزهاد من ينطبق عليه وصف صوفى بالمعنى الدقيق. أما فى القرن الثالث فحصل التمييز بينهما فسمى الزاهد زاهدا وسمى الصوفى صوفيا أحيانا وعارفا أحيانا

بل إننا نجد فى هذا القرن تحولا فى وجهة نظر الزهاد أنفسهم، فإنهم لم يعودوا ينظرون إلى الزهد باعتباره غاية فى نفسه، بل نظروا إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاية أخرى هى الكشف: أى أنهم اعتبروا الزهد مرحلة من مراحل الطريق بواسطتها يصل السالك أو المريد إلى تصفية النفس والترقى بها فى معارج الحياة الروحية إلى أن يصل بها إلى حالة الفناء التى تنكشف له فيها الحقائق الألهية، فتنعكس هذه الحقائق على مرآة قلبه كما تنعكس صور المرئيات على صفحة المرآة الصقيلة المجلوة

وفى هذا القرن أيضا نجد القوم يكثرون من الكلام فى المواجد والأذواق، ويصفون الأحوال والمقامات، ويتكلمون فى الصحو والسكر والمحو وفى الوحدة والسكرة والتفريد والتجريد والفناء

والبقاء وغير ذلك من أحوالهم الصوفية

يعرف معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ التصوف بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الناس؛ يريد أنه ادراك الحقائق الالهية بواسطة الكشف والزهد فى الدنيا. وهذا تعريف جديد للتصوف لم نسمع به من قبل

ونغمة أخرى جديدة نسمعها من ذى النون المصرى الذى كان أول من تكلم فى المعرفة الحاصلة بالكشف واعتبرها المقياس الحقيقى لحياة الرجل الصوفى، يقول: إنه بمقدار مايعرف الصوفى من ربه يكون إنكاره لنفسه. وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات، وهى الحالة التى عبر عنها غيره بالفناء

وفى هذا المعنى يقول الحسين بن على بن يزدينار: «يكون العارف بمشهد من الحق إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الاحساس» وهو قول ينسبه بعض الصوفية للشبلى، ونغمة ثالثة نسمعها من أبى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١) فى الحال التى يعبر عنها القوم بالفناء: يقول أبو يزيد وقد سئل عن العارف (أى الصوفى): «للخلق أحوال ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته (أى شخصيته) لهوية غيره، وعيبت آثاره لآثار غيره؛ فالعارف خيار والزاهد سيار» وفى هـذا إشارة صريحة إلى التفرقة بين الزاهد والعارف أو الصوفى

***

فى أثناء هذا القرن كان التصوف الفلسفى فى دور التكوين؛ فقد توفرت العوامل على ظهوره، وتهيأت النفوس لقبوله، وظهرت بوادره بالفعل فى عبارات بعض الصوفية أمثال ذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى. ولكن من المغالاة أن نقول إن لأحد من متصوفة القرن الثالث مذهبا فلسفيا خاصا أو عقيدة فلسفية صوفية معينة، على الرغم من أن كثيرا من أقوالهم يمكن تأويلها تأويلا فلسفيا

ولكن سرعان ما انتهى عصر الانتقال وبدأ التصوف يدخل فى دوره الثالث وهو الدور الفلسفى الحقيقى؛ وكان ذلك فى القرن الرابع وما بعده، فقد تحول التصوف إلى شكل جديد بدخول النظريات الفلسفية فيه. وربما كان أول السابقين إلى هذا الميدان الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ

لم يقف الصوفية بعد القرن الثالث عند حد الكشف والشعور بالمواجد والأذواق فى أحوالهم الصوفية، بل حاولوا أن يفسروا ما يدركون ويؤولوا مايشعرون به، ويعللوا لما يتذوقونه من تلك المعانى التى هى فوق طور العقل، فكانت نتيجة شرحهم وتفسيرهم وتعليلهم أن وضعوا نظرياتهم الفلسفية. عرفوا الكشف فى أحوالهم فحاولوا أن يضعوا نظرية للكشف فى صحوهم: أدركوا وحدة الوجود فى حالة فنائهم فحاولوا تفسير وحدة الوجود. أدركوا الوحدة فى الكشف والتعدد فى الصحو فدعاهم ذلك إلى تفسير معنى الوحدة والكثرة، ومعنى الحق والخلق ومعنى الفيض والاتصال، والجمع والتفرقة وغير ذلك

فمجموعة تفسيراتهم لمظاهر الحياة الصوفية هى الذى نعنيه بفلسفتهم التى يمكننا أن نلخصها فى ثلاث نظريات: نظريتهم فى طبيعة الوجود، نظريتهم فى المعرفة، نظريتهم فى الانسان ومركزه فى العالم وموقفه من الله

على أن من الصوفية من رجال العصر المتأخر أمثال محيى الدين بن عدى، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول، من سلك مسلك الفلاسفة من بادئ الأمر، فكانت لهم وجهات نظر فلسفية خاصة فى طبيعة الوجود وفى الانسان والعالم، فاستعملوا المنهج النظرى الفلسفى وأساليب الفلاسفة واصطلاحاتهم واستدلالاتهم، ثم نظروا إلى التصوف باعتباره مرحلة متممة لمذهبهم، كما نظر الصوفية إلى الزهد باعتباره مرحلة متممة لطريقتهم

والفرق بين هذا النوع من الصوفية والنوع الأول أن الأولين أمثال الحلاج يضعون نظرياتهم الفلسفية فى عرض تأويلهم وتفسيرهم لما يشاهدونه فى أحوالهم ومواجدهم؛ أما الآخرون فيلجأون للكشف والذوق توكيدا وتحقيقا للنتائج التى يصلون إليها بالنظر العقلى

وهذه الطريقة ممثلة تمام التمثيل فى كتب ابن العربى بوجه خاص، فانه بعد أن يبحث المسائل الفلسفية بحثاً عميقا ويناقشها من جميع وجوهها يحس كأن العقل غير كاف فى الوصول إلى درجة اليقين فيها، فيحيل القارىء إلى الكشف والذوق، أو يخبره بانه هو نفسه قد أدرك حقيقتها كشفا أو ذوقا

صار التصوف الفلسفى بعد ذلك سيراً حثيثا بخطوات واسعة فسيحة وظهرت فيه المذاهب الفلسفية الكاملة، بل والمدارس الفلسفية، وألفت فيه المؤلفات أمثال الأحياء والمشكاة للغزالى

والنصوص والفتوحات لابن العربى وحكمة الاشراق للسهروردى والانسان الكامل لعبد الكريم الجيلى

أما العوامل التى ساعدت على ظهور التصوف الفلسفى فكثيرة ومتعددة ، فقد كانت البيئة التى يعيش فيها متصوفة القرن الثالث وما بعده مزيجا غريبا من الأمم المختلفة والثقافات المختلفة والديانات المختلفة والفلسفات المختلفة ، بل كان الجو الذى يتنفس فيه المسلمون خليطا من هذه العناصر كلها : فلا عجب إذن أن يأتى التصوف الفلسفى فى الاسلام ممثلا لكل مذهب من المذاهب ، حاويا لكل بدعة إسلامية وغير إسلامية ، فان فلسفة التصوف الاسلامى ليست مذهبا واحداً ولا عقيدة واحدة ، بل مجموعة من المذاهب بعضها يتفق مع روح الاسلام وبعضها يتعارض مع التعاليم الاسلامية معارضة صريحة

واهم هذه العناصر التى دخلت فى التصوف الفلسفى ومنها تركب هى :

أولا — التصوف نفسه بكل ما فيه من وصف للحياة الروحية ، وكلام فى المقامات والأحوال ، وذكر للمواجد والأذواق ، وتعبيرات عن خاطر النفس ومحاسبتها ومراقبتها

ثانيا — القرآن والحديث : فان الصوفية قد اتخذوا كثيراً من الآيات القرآنية أساس النظرياتهم فأولوها تأويلات تتفق وروح هذه النظريات ، وذلك مثل قوله تعالى : كل شىء هالك إلا وجهه . وقوله : كل من عليها فان ، وقوله : الله نور السموات والأرض الخ فقد اولوا الوجه فى الآيتين الأوليين على أنه الذات الالهية الأزلية المقومة لكل موجود ؛ وأولوا الهالك والفانى على أنه مظاهر الوجود أو الوجود المتكثر : أما النور ففسروه تفسيراً زرادشتيا على أنه الوجود الحقيقى وضده الظلمة التى هى العدم المحض . أما الأحاديث التى يستشهد به الصوفية فأكثرها مدخول على النبى منتحل

ثالثاً — علم الكلام : فقد وصل علم الكلام فى إبان ظهور التصوف الفلسفى فى الاسلام أقصى حده فى النضوج الفلسفى ، وتسرب الكثير من نظرياته إلى نظريات الصوفية

والمعروف أن عدداً كبيراً من رجال الصوفية فى القرن الثالث كانوا من كبار المتكلمين أيضاً أمثال أبى القاسم الجنيدى والحارث المحاسبى وغيرهما

والناظر فى كتب التصوف أمثال اللمع للسراج والتعرف للكلاباذى والرسالة للقشيرى وغيرها يعرف مدى علم الصوفية بمسائل الكلام ومدى مزجهم لها بنظرياتهم . وتكفى الاشارة هنا إلى عقيدة وحدة الوجود التى هى أخص مظهر للتصوف الفلسفى الاسلامى ، فانها فيما أعتقد راجعة فى أصل نشأتها إلى تفكير إسلامى كلامى صوفى ؛ وليست كما يقول بعض المستشرقين راجعة إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الفلسفة الهندية ؛ فقد بدأ الصوفية يبحثون فى عقيدة التوحيد بحثا كلاميا فوقعوا من حيث لا يعلمون فى عقيدة وحدة الوجود . بدأوا ببحث الوحدانية فقالوا : الله واحد بمعنى أنه لا شريك له ، فنفوا الشريك والند والضد والمثل . وقالوا أهم صفة للأله الواحد وجوب الوجود . ثم بحثوا فى واجب الوجود فقالوا الله واجب الوجود بمعنى أن وجوده من ذاته ، وغيره ممكن الوجود أى وجوده من غيره ، ولكنهم زادوا على ذلك بقولهم إنه واجب الوجود بمعنى أن وجوده هو الوجود الحقيقى وكل ما عداه فوجوده ظاهرى أو وهمى . ثم توسعوا فى معنى وجوب الوجود فقالوا ان واجب الوجود هو الفاعل لكل شىء والعلة فى وجود كل شىء - فانتهوا من بحثهم بنتيجتين :

الأولى : نفى العلل كلها والقول بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله

والثانية : نفى الوجود المتكثر الظاهر فى الكون والقول بأنه وجود زائل متغير - وأن المقوم لكل موجود والحقيق فى كل موجود هو الحق أو الله

وهكذا بدءوا بقولهم : لا إله إلا الله ، وانتهوا بقولهم : لا موجود على الحقيقة إلا الله . ثم وجدوا - أو خيل اليهم أنهم وجدوا - ما يعزز دعواهم هذه فى الحالة الصوفية التى يعبرون عنها بالفناء وهى الحالة التى يشعر فيها الصوفى بالوحدة المطلقة فلا يدرك فيها فرقا بين حق وخلق - وهى الحالة التى صاح فيها الحلاج بقوله : أنا الحق !

وقد سمى الصوفية عقيدة التوحيد بتوحيد العوام ، وعقيدة وحدة الوحدة بتوحيد الخواص ، وأوردوا لكل منهما تعريفا خاصا

يقول الجنيد فى تعريف توحيد العوام إنه إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته . ويقول فى تعريف الخواص إنه الخروج من ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية يعنى بذلك الفناء

رابعا — الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - لاسيما الافلاطونية الجديدة المتاخرة التى ظهرت فى كتابات برفلس ويمبليخوس والكاتب الافلاطونى المسمى خطأ ديو تسبوس الازيو باغنى.

ولا نبالغ اذا قلنا إنه لاتكاد مسألة من مسائل التصوف الاسلامى الفلسفى أو نظرية من نظرياته تخلو من أثر للفلسفة الافلاطونية الجديدة: فنظريات الصوفية فى خلق العالم والفيض أو الصدور عن الواحد الحق، وكلامهم فى النفس والعقل والقلب والكشف والمعرفة والشهود، وفى العالم العلوى والعالم المحسوس وفى الانسان الكامل، كلها مطبوعة بطابع هذه الفلسفة ومستنداليها

خامسا — المسيحية ولا نعنى بالمسيحية الديانة المسيحية وعقائدها، بل الحياة المسيحية كما حيبها المسيحيون فى البلاد التى انتشر فيها الاسلام ممثلة فى حياة الرهبان والمتصوفين؛ ولم يأخذ الصوفية عن المسيحيين بعض أساليبهم فى الزهد ومظاهر التقشف ولباس الصوف الذى منه اشتق اسمهم فحسب، بل أخذوا عنهم بعض نظرياتهم فى طبيعة المسيح وفى التثليث: فقال بعضهم بالحلول، مثل الحسين بن منصور الحلاج الذى قتل بسبب هذه العقيدة سنة ٣٠٩. ومن أبياته فى الحلول قوله:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينـــه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وقال بعضهم صراحة بالتثليث، وأن التثليث أساس يقوم عليه أمر الخلق كله، ولكنه تثليث اعتبارى قائم بالفردية الألهية. وبهذا المعنى يجهر ابن عربى فى غير مبالاة فى قوله:

تثلّث محبوبى وقد كان واحداً كما صير الأقنام بالذات أقنما

وليست نظرية الصوفية فيما يسمونه النور المحمدى (أو الحقيقة المحمدية) الذى يقولون إنه كان فى القدم قبل أن يخلق الله العالم، وأنه بواسطته ومن أجله خلق الله العالم، سوى صورة من صور النظرية المسيحية فى المسيح الذى يطلقون عليه اسم «الكلمة» ويقولون انها كانت فى الأزل مع الله، وأنه بواسطتها ومن أجلها خلق الله العالم

سادسا — الفلسفة الهندية التى دخلت الاسلام عن طريق فارس وما وراء النهرين وما جاورهما من حدود الهند، فان المسلمين لم يفتحوا الهند إلا فى القرن الرابع الهجرى (فى زمن السلطان محمود الغزنوى المتوفى سنة ٤٢١)، ولكن الفلسفة الهندية البوذية والتصوف الهندى قد شقا طريقهما إلى بلاد الفرس وما جاورها قبل الفتح الاسلامى بنحو ألف سنة، وقد كان كثير من بلاد هذه الناحية مراكز مشهورة بالتصوف غاصة بالادارة الوثنية القديمة: نخص بالذكر منها مدينة بلخ

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن كثيرا من أوائل الصوفية فى الاسلام قد جاءوا من بلخ هذه وماجاورها، وبواسطتهم دخل فى التصوف الاسلامى كثير من النظريات الهندية والتقاليد البوذية فى مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن وما إلى ذلك. من هؤلاء إبراهيم بن أدهم الذى يقول عنه الأستاذ جولدزيهر إن قصته قد حيكت على مثال قصة بوذا من أنه كان من بيت من بيوت الملك فزهد فى الملك والدنيا بأسرها وعاش من عمل يده؛ ومثل أبى يزيد البسطامى الذى كان من أصل فارسى زرادشتى تلقى عقيدة الفنـاء عن أبى على السندى، كما تلقى عنه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس؟ والفناء الذى يتكلم عنه أبو يزيد والذى شاع بعده فى كلام الصوفية جميعهم هو ما يسميه الهنود «زفانا» أى انمحاء الشخصية الفردية والشعور بالوحدة العامة للوجود. ومما يدل على أن عقيدة الفناء هندية الأصل أنها ظهرت أول ما ظهرت فى كلام الصوفية من الفرس أمثال ابى يزيد البسطامى، وليس لها وجود فى عبارات أهل مصر والشام أمثال ذى النون المصرى مع أن ذا النون كان من معاصرى ابى يزيد

* * *

كل هـذه العناصر وعناصر أخرى ثانوية الأهميـة دخلت التصوف الإسلامى فغيرت من عادته وصورته، وعنها جميعها ظهرت ناحية من نواحى الحياة العقلية الروحية فى الإسلام على جانب كبير من الأهمية، لأنها مرآة نرى فيها النشاط العقلى والروحى على السواء، كما نرى فيها وصفا دقيقا لأحوال النفس الصوفية فى أرقى درجات صفائها، ومحاولات فلسفية أراد بها أصحابها وضع نظريات فى طبيعة الوجود أو طبيعة المعرفة أو طبيعة الإنسان ومركزه من الله والعالم

ولم يقف الصوفية، كما لم يقف فلاسفة الاسلام من هذه المصادر كلها موقفا سلبيا، أى لم يكونوا مجرد نقلة أو مرددين لأقوال غيرهم ترديد الصدى للصوت، بل مزجوا كل هـذه العناصر

المختلفة المتباينة مزجا ربما لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ التصوف فى أى أمة أخرى، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب فى التصوف الفلسفى كان لها أثرها ولها خطرها فى تطور الفلسفة والتصوف فى القرون الوسطى والحديثة، لا سيما بعد أن بلغ التصوف الذروة الفلسفية فى مذاهب أمثال محيى الدين بن عربى، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول، وعبد الحق بن سبعين الأندلسى، وعبد الكريم الجيلى، والصدر القونوى، وجلال الدين الرومى، وعبد الرحمن جامى وغيرهم

من هذا يتبين أن كل نظرية فى نشأة التصوف الاسلامى قائمة على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضى عليها بالفشل. إذ قد رأيت النواحى العديدة الاسلامية وغير الاسلامية التى استمد منها التصوف مادته.

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا فى القول بأن التصوف الاسلامى قائم على أصل واحد أو مستمد من جهة واحدة: فذهب الأستاذ فون كريمر ودُوزى إلى أن أصل التصوف الاسلامى هندى أساسه مذهب الفيدانتا؛ وذهب الاستاذ «مركس» إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة؛ وقال الأستاذ برون إنه فارسى فى جوهره وإنه نتيجة لرد فعل أحدثه ثوران العقل الآدمى ضد الدين الاسلامى الفاتح. وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من هؤلاء جميعاً، إذ يعترف أن التصوف الاسلامى ظاهرة معقدة غاية فى التعقيد، وأن أصوله متشعبة كثيرة لم يكشف البحث الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء من الحقيقة لا الحقيقة برمتها، وأن الذى دعا هؤلاء المستشرقين إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون النواحى الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الاسلامى والأحوال التى قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة الاسلامية والعقلية الاسلامية التى هضمت كل ما وصل إليها من عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى، واستخلصت لنفسها فلسفة وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامى

أبو العلا عفيفى

صديق من صنوف الأعداء

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —

مرت القرون تترى، والغرب يرمى الشرق بأفلاذ أكباده، ويرصد لكيده أنفس عتاده، ويهيج لقتله غطاريف أجناده، والشرق صامد باسل، صابر على هذا البلاء النازل... يا عجبا! هما يتنازعان قبرا، وإن يكن لسيد الحواريين، وكلاهما يؤمن أنه مرفوع، وفى السماء قار. ليس فى الأرض مرقده، ولا بين أطباق الثرى جسده. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. حكمة الله وسنة الاجتماع، لتتصل الأسباب، وتتم النواميس، وتنمو الحضارات، وتتواصل المدنيات

فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهذا الأتون لما يخمد، يؤجج الحقد أواره، ويورث البغض ناره، كانت تتدانى قلوب بهذا التباعد، وتتعارف نفوس بالتقاطع السائد، ويأبى الله إلا أن يكون هذا الكون خيراً شيب بشر، وشراً حمل خيراً، وأن تكون الحرب ناراً ونوراً

— ٢ —

كان جرمانياً صلبة، أوربياً محضاً، غربياً صرفاً؛ البابا وصيه وهو صغير، والبابا مدبره وهو كبير؛ نشأ فى حضن المسيحية، وغذاه حب الكنيسة الكاثوليكية، وبورك بها طفلا، وفتى وزوجا وأباً، كما توج بها ملكا وأيد منها، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن يسير إلى الشرق غازياً، ويخلص قبر المسيح فادياً، ويعز النصرانية فى شرقها والغرب: ذلكم فردريك الثانى هو هنشتاوفن، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وملك صقلية - ١٢١٢ - ١٢٥٠ م -

— ٣ —

لكن الشرق الساحر، بسنه الباهر، ومجده الزاخر، وعقله

القاهر ، وفنه الفاخر ، قد فتن الأنبرور على غربيته ؛ واستهواه فى أوربيته ، وأصباه على جرمانيته ، فاذا العاهل شرقى فى هواه وميله ، شرقى فى علمه وفنه ، شرقى فى مزاجه وذوقه ، شرقى فى خاصته وجنده ؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم ، ولا يفى بموعد ، . . ثم إذا هو حرب على صاحب مفاتيح الجنة ، ينتهك حرمته ، ويحقر قداسته ؛ يرفع على رأسه سيفه ، بدل أن يحنى أمامه رأسه . وإنها لمفارقة سجلها التاريخ دهشا

— ٤ —

كان ذوقه شرقيا ، فى جده ولعبه ، فى قصره وحاشيته ، فى مركبه وسلاحه ؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون ، قد حكى فى ذلك ما عرف الشرق من قصور الخلفاء ، حتى ما أفرد من مقاصير النساء (١) أنس إلى الفن الشرقى صامته وناطقه ؛. تجرى حياته على أنماط وعادات شرقية (٢) تحرسه أجناد من بنى الشرق المسلمين (٣) يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها (٤) وكم وراء ذلك من مظاهر فنية ، وولع شرقى ليس أقل من هذا شانا ولا أيسر خطراً

كان عقله شرقيا ، آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية (٥) وعمل على اكساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده ، فنح التفكير العلمى لعصره اتجاها جديداً ؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب فى حركة نقل المعارف عن الشرق فى تلك الأعصر ؛ وفى كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوربا المختلفة ، لنقل ماحفظ الاسلام من تراث الانسانية ، وذخر المدنية

ونسى أو تناسى ما بين الشرق والغرب إذ ذاك ، من حروب مشبوبة ، وعداوة مذكاة ، فراسل ملوكه فى الود ، وفى العلم ، يسألهم فتاوى الرياضة ، وفنون الحكمة ، سواء فى ذلك دانى الشرق منه ، وقاصيه عنه ؛ فكتب إلى علماء سبتة يسألهم فى شئون فلسفية ، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشبيلى (٦) ، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر فى مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة ، ورد عليه الشيخ علم الدين قيصر الحنفى وغيره من علماء مصر (٧) : التى كانت تتلقى هجمات الغرب ، وتلقنه أصول الحياة فى وقت واحد

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة — فريدريك الثانى هوهنشتاوفن —
(٢) المصدر السابق
(٣) تراث الاسلام ج ٢ تعليقة ٢ ص ٢٣
(٤) الدائرة السابقة
(٥) الدائرة المذكورة
(٦) دائرة المعارف الإسلامية — ابن سبعين —
(٧) السلوك للمقريزى و القسم الاول من الجزء الاول ص ٢٣١

— ٦ —

كان شرقى الوجدان ، غمره فيض الشرق الروحى ، ونزوعه الصوفى فلم يأسره تلقينه ، ولم يعقله تعميده ؛ بل كان وراء ذلك كله : دخل بيت المقدس - حفظا لناموسه - برضا الملك الكامل صلحا لجامله المسلمون بمنع الأذان ، وإذا هو يقول : والله كان غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (١) . وإذا المسلمون يحسون تسامحه ، فيقول مؤرخهم : إنه كان دهريا ، وإنما يتلاعب بالنصرانية . وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ما عرفت فى تاريخها من ثورة ونضال

— ٧ —

تلك شخصية خليقة بالدرس الفلسفى والتاريخى ، رجل أنقذ العقل إذ الجهل حالك ، والظلام قاتم ؛ وحرر الوجدان إذ العصبية طاغية باغية ؛ وعرف الاسلام وتحبب إليه إذ أنكره الغرب وقاتله جاهداً جاهلا ، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه « السلطان المعمد » (٢) .

إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يجحد ، وأنه مجد الشرق ومثله يعشق ، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل

— ٨ —

أيها الشبان : تلك فتنة الشرق ، فهل فقدها فيكم ؟ ؟
أيها الشبان : تلك روحانية الشرق ، فهل خسرها بكم ؟ ؟
أيها الشبان : تلك قوة الشرق ، فهل أضلها عندكم ؟ ؟
ألا أجيبوا داعى الزمن المثوب !

أمين الخولى

(١) السلوك : الموضوع السابق ص ٢٣٢
(٢) دائرة المعارف الايطالية الجديدة - المادة السابقة

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ احمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

فى حوالى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم

فى صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التاليف ومن سائر المكاتب

الجيش والبحرية

فى العصر العباسى الأول

للدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذى نما نمواً عظيما على أثر دخول الكثيرين فى الاسلام وانضوائهم تحت لوائه ، وقد بلغ عدده فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجند ، ووصل هذا العدد فى العراق وحدها إلى ١٢٥٫٠٠٠ جندى . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامى للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام . ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم ، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد ، أصبح الجندى يتقاضى راتباً شهريا قدره عشرون درهما (وكان الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا) ، وكانت هناك مع الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل دينية أو مادية

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده : فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ؛ وهؤلاء من جند العرب . والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيا الخراسانيين (وكان من سياسة الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب بعضهم بعضا) ؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسى الأول دخل فى الجيوش العباسية عنصر جديد مالبث أن غدا له النفوذ ، وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين ، وهو عنصر الأتراك الذين كانوا يكوّنون القسم الرابع من الجيش العباسى . وما انفكت جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى جيش الخليفة أخيراً ؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملا فى أن يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية . ومن ثم أصبحوا حراس الخلفاء ، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من جراء عنتهم وجورهم شيئا كثيراً ، وما لبث أن امتد نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم (١)

وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد هذه الدولة أبو مسلم الخراسانى ، وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ؛ وعبد الله ابن على العباسى على جند المغرب ، وأكثره عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبد الله بن على على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم بجنده الخراسانى كان هذا انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين فى الجيش ؛ بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده ، فقضى عليه . ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين ، لأن العصبية العربية كانت لا تزال فى قوتها ، فاصطنع كثيرين من العرب ، وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته . فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى وأخيه ابراهيم . وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه فى واسط ، ولما سلّم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذى ثار فيه الراوندية على المنصور ، فقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وسماه «أسد الرجال» وولاه اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج بمدينة بست (٢) سنة ١٥١ هـ . ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو

(1) Hell : Cultur der Araber, p. 69 - 70

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٧٤ - ١٧٥

أعظم قواد المنصور، وفيه يقول بشار بن برد:

فقل للخليفة إن جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ﻫ لإخضاع أهل طبرستان، وكانوا قد خرجوا عليه، فنازلهم ابن العلاء طويلا، وفتح بلادهم من جديد، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور، وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى (١)

أما الآلات الحربية التى كانت تجهز بها الجنود، فلم تكن تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية، فكان من أسلحتهم القسى والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)

وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم والتى كانت فى نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم: خوذة، ودرع، ومنطقة، وغيان. وكانوا يعنون عناية خاصة بالسيوف التى كانوا يصنعونها بطريقة فنية، ويحلونها بالفضة. وكانت السروج مماثلة فى شكلها للسروج الإغريقية التى هى من نوع السروج الشرقية تماماً (٢).

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية وبخاصة فى عهد المنصور الذى اهتم اهتماماً كبيرا بالمسائل الحربية. وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ودرعه، فكانت تصف الجيوش أمامه فى ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مضر)، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون (٣). ومما ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب عن حصار جند المأمون بغداد نتبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها العباسيون فى ذلك العصر. وهاك ما ذكره المسعودى بنصه: «ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة، فتأذى الناس به. وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم السامين والميازر. وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها

(١) شرحه ج ٩ ص ١٧٧

(2) Hell p 70; Khuda Buksh: Onent under the Caliphs, p. 328.

(3) Khuda Buksh: Ount under the Calipho, p. 340, 344, 345; Hell, p 70.

الخوذ، ودرقاً من الخوص والبوارى، قد قرنت وحشيت بالحصا والرمل. على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده. فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود قد اتخذت، ولجم من مكاس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة، ويأتى النقيب والقائد والأمير، فتقف النظارة ينظرون إلى حزبهم مع أصحاب الخيول المعدة، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية (١)»

ولما ولى المتوكل الخلافة، أمر كل الجنود بتغيير زيهم القديم، وألبسهم أكسية رمادية، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم، بل يضعوها فى مناطقهم حول وسطهم (٢).

ومن أى جهة بحثنا فى الجيش فإننا نصادف ما يماثلها فى العصر الحديث؛ من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين، فقد كانوا يستخدمون فى ذلك كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم. ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة العربية، والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور؛ وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم الذى كان غريزيا فيهم. وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب؛ وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى جانب العرب وأخرى فى جانب الإغريق. لذلك كانت هذه الثغور وهى طرسوس، وأذنة، والمصيصة، ومرعش، وملطية، تقع

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨.

(2) Hell: p 71.

طورا فى أيدى العرب ، وطورا فى أيدى الروم .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور (١)

ولما ولى هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور ، جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل ، كما أمدها بحاميات دائمة ؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها ، وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول (٢) ، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس .

وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين فى ذلك الوقت هى الأساطيل الحربية . ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر . وكان أول من ركبه أبو العلاء الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد الفرس فى اثنى عشر ألفا من المسلمين دون اذن الخليفة ، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبى العلاء وعزله . ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر فى ركوب البحر كى يغزو بلاد الروم لقربها منه ، فكتب إليه يردعه عن ركوب البحر

ولما ولى عثمان الخلافة ألح عليه معاوية فى غزو بلاد الروم ، فاذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، كما غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان البحر ، فحارب سنة ٣٤ هـ قسطنطين بن هرقل وانتصر عليه فى موقعة ذات الصوارى . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية . ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد

ولما ولى معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية ، وفى عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس . وفى ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هجرية دار لبنائها فى جزيرة الروضة (١)

أما أن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لاسبيل إلى إنكاره ؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوربا فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربة إلى اليوم ، والتى لاتزال محتفظة بعربيتها . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوربا . ويقول فون كريمر : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا لأساطيل الاقطار المسيحية أن كثيراً من المصطلحات العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسن البحارة فى جنوب أوربا نذكر منها كلمة Cable الماخوذة عن لفظ « جبل » العربى وكلمة Arsenal وبالايطالية (Darsenal) الماخوذة عن لفظ « دار الصناعة » وكذا كلمة Carvette الماخوذة من لفظ (غراب) العربية ، و Admiral الماخوذة عن لفظ « أمير البحر (٢) »

حسن ابراهيم حسن

(1) Khuda Buksh : Orient p 349 suiv.; Hell, p 71

(2) Hell, p 71.

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(2) Khuda Bukhsh : Orient under the Kaliphs pp 35 et seq.

مرض البول السكرى
نصيحة من مريض (الله تعالى) الى المرضى
مرضت بالبول السكرى وبالتجائى الى كل الطرق لم أستفد سوى استفادة مؤقتة تزول بزوال العلاج إلى أن وفقنى الله تعالى إلى بعض أنواع بذور للنباتات لم أجدها الا بمحل عطارة محمد طاهر الصاوى بوكالة أبوزيد بالحمزاوى بمصر تليفون ٥٢٥٢٠ ولم يكلفنى ثمنها سوى مبلغ عشرة قروش صاغ . وباستعمالها مدة أربعة أسابيع كانت النتيجة مدهشة جدا ... فقد ظهر من نتيجة التحليل أن البول طبيعى بعد أن كان بنسبة ٥٥ فى الألف .
لذلك أخذت على نفسى عهدا أن أنصح بها المرضى وأعتقد أن المحل المذكور لا يتأخر عن إرسالها لكل مريض خدمة للانسانية متى ترسل إليه قيمة الثمن المذكور .
أحمد ك . م .

تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

ليس خيراً فى الاحتفال بذكرى هجرة الرسول من الاجتهاد فى إحياء سنته صلوات الله عليه عن طريق التنبيه إلى بعض الأخطار التى تحف بها فى هذا العصر الذى تكالبت فيه عليها الميول والشهوات ومختلف النزعات الناجمة فى الغرب ، والتى توشك إن لم يجتهد أولو الرأى والدين فى صدها وإيقافها عن حدها أن تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور كتاب الله نفسه ، فتعمى قلوب بعد إبصار ، وتنشأ ناشئة المسلمين فى دياجى الشك بعد أن كان يرجى أن تنشأ فى نور اليقين

وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك فى أحكام الدين من ناحية ، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما يسمونه روح العصر ، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية أخرى . وأصحاب هـذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع خطواته فى الاجتماعيات ، أى فى الميدان الذى ما نزل الدين إلا لتنظيمه ، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه . والغرب كما نبهنا فى مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا فى عالم المادة أما فى عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكما ، بل هو فى حيرة من أمره : يضطرب بالنظم المتناقضة ، ويعج بالآراء والنظريات ، ويميد بالأهواء والشهوات ، حتى أصبحت عوامل القوة والأمن التى أصابها من ناحية علومه الطبيعية ، هى بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه ؛ وأصبح من مدنيته هذه المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية ، وجهلوا ضعفه الاجتماعى ، فظنوا أن القوة فى ناحية معناها القوة فى كل ناحية ، وأنه لما كان على حق فى طبيعياته ، فهو على حق فى اجتماعياته ؛ فسبيل النهوض والقوة فى زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه ، ويأخذوا بما هو عليه ، لا يبالون ماذا يتركون ، ولا يترددون ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك كثير مما أمر به الاسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه . والاسلام مهما ضعف فى نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبته بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هـذه الدعوة على الدعاة من ناحية ، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التى جرى عليها المسلمون منذ قام صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكما وعملا باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس . هنالك ذهب دعاة الغرب مذاهب ، وانقسموا طرائق ، فيما يدعون إليه ، وكيف يحملون الناس عليه

فمنهم من نظر فإذا القوة بيده ، ولاه الناس اياها فى ثقة به وغفلة عن نيته ، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتيه الزمن مثلها لحمل الناس على ما يريد ، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد ، فحمل قومه على غير الدين ، بنفس القوة التى ائتمنوه عليها للدفاع عن الدين . واشتط حتى كان يشنق فى سبيل القبعة ، ويحبس ويجلد فى سبيل السفور والاختلاط ؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن الدين ، وحال فى أمته بين الإسلام وبين الحكم الذى هو أخص خصائصه ، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا فى الميدان الذى لم تكن أوروبا لتطمع فى غزوه : ميدان الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوريث . وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاح لهذا الصنف من المفتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب بالقوة رغم الدين ، فكان من هؤلاء من أفلح قومه فى الثورة عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشردوه عن بلده ، فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للمسلم الذى ينظر الى ما يجرى فى أقطار الاسلام الأخرى من بعيد ، وشبه إنذار لمن عساه أن تحدثه نفسه بسلوك نفس الطريق . فوقف الخطر

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل ، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامنا فى بعض الأقطار ينتظر الفرصة ليشب كالنار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس بيدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعي إلى غرضهم ، بل هم دائبون ناصبون فى سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف . صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تتلخص فى « بث الدعوة » ، لكن سبيل الدعوة معبد لهم ميسر، فإن جميع ما يراه الناس ويسمعونه فى ملاهيهم ومتروضهم، وجميع ما يقرأونه للتسلية لا يخلو مما يتألفهم إلى ما ينافى الدين ويبث فيهم روح الغرب الماجن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون ؛ فالأغانى بألحانها ومعانيها المتهالكة . والراديو بما يذيعه من مهازل المسارح ومما جن الصالات ، والسيما بما تعرضه من روايات صنعت فى الغرب لتمثل فيما تمثل نواحى الشهوات فيه بما يغرى بها الناس ، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر الى الشرق والى البلاد الاسلامية منه على الأخص — كل هذا وكثير غيره يعمل عمله فى النفس المسلمة الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها ، وتمهد للغرب ودعاته سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل فى ذاتها خطر كبير ، لكن لا يزال هناك فى المسلمين شعور بأنها خطر ، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها . صحيح ان هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حينا بعد حين ، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات ، لكنه على أى حال شعور سليم . وهو على كل حال موجود منتشر، ووجوده هو معقد الآمل والرجاء ان يصير يوما ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلامية فى طريق الاسلام لتحيا فى بلادها حياة مسلمة ، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلى الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية ، من تخدير هذا الشعور الاسلامى وإضعافه ثم إطمائه لما أوجسوا منه خيفة ، ورأوا فى إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام ، عقبة العقبات فى سبيل دعوتهم التى يبثونها والتى ما فتئوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها . فتفتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينيموا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فاتخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية ، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها .

فمنهم من جعل يوهم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجديه . وأن روح العصر لاشك غالب . ففيم المغالبة والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل الآراء الجديدة من الجيل الجديد ؟ وهذه طريقة قد أثرت فى كثيرين بل قد أفلحت مع بعض من كان يظن انه أعقل وأبصر من ان تجوز عليه هذه الخدعة من اهل القلم من المسلمين . فكتب حديثا ييئس فئة الشباب المتمدين فى حربهم الدينية الحديثة ضد الاختلاط ، لا لان الاختلاط عنده صواب ولكن لان وقت المقاومة قد فات، إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ! ولو كانت هذه الحجة على أساس من الحق لما أصابت الدعوة اللاإسلامية شيئا من النجاح ، لان عمرها كله لا يزيد على ربع قرن ، ومع ذلك لم ييأس اهلها أن يبدأوها برغم القرون الكثيرة التى رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلامية التى قاموا لمحاربتها : وقد بدأوها بالفعل واصابوا — لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها — هذا النجاح الذى أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحى من الكلام .

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتململين بإيحائه إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاة ما يسمونه الجديد يبشرون دعوتهم يمينا وشمالا فى أذهان الاطفال، وفى عقول النساء والرجال ، لان الحق سيتضح والباطل سينهزم والاصلح سيبقى ، وبتركهم يفهمون ان الباطل سينهزم من نفسه ، والحق سينتصر على رغم قعود أهله ، وأن الدين له رب يحميه ؛ وإذن فليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلفوا أنفسهم مشقة الجهاد فى سبيله . ويصادف هذا الايحاء نفوساً تحركها للقيام كتحركها للقعود ، فتجنح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لأولئك الدعاة ، وهى

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمى الدين يحميه طبق سنته التى خلت فى الاولين باهلاك القاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وأبلغ فى الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا فى ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس فى الدين ما يمنع مما يريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الاجماع أن يكون أصلا من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع ؛ فاذا جئت لهم بالنص على انعقاده تجده فى بطون الكتب، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا لرأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم فى ماضى الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لايثبت فى الدين لرأى شاذ يراه واحد ولوكان من أهل العلم ما انعقدت بيعة أبى بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة فى أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم فى جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور فى أمة من الأمم فى هذا العصر أو فى أى عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرر به حكم الفرد، إذ يصير حكم الفرد فى هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى.

فإذا كان فى الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا فى السنة وقالوا إن الذى وضع على الرسول كثير، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فاذا قلت إنه قطعا ليس من الموضوع لأنه وارد فى الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعا عن الرسول ، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك فى الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم فى التدقيق عند تمييز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلى البعيد للسهو أو النسيان أو الخطأ فارقا بين الصحيح وبين مالا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يمحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائنا من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختبر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة فى التدقيق فقط هى التى تجيز عقلا من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعا بصدوره عن الرسول برغم ذلك التمحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطا للحديث لسقط التاريخ كله . ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يجيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ماهو فى مرتبة دون مرتبة اليقين فى العلم وفى الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون فى تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هى من ناحية الثبوت فى العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت فى الدين . على أن الاجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ فى الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون فى أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به مما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلا فى الرسالة التى كتبها الامام الشافعى مقدمة للأم فى الأصول

ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع فى تأويله وصرف الآى عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته .

ولقد لطفت حيلتهم فى هذا حتى وقع فى أحبولتها بعض قصيرى النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقوع ولو واحدا من رجال الدين فى أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذى يحف بالاسلام اليوم فى بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فسيجزيهم بتراخيهم ذلة فى الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمد أحمد الغمراوى

في ظلال الهجرة

غـــزوة بدر

للأستاذ ابراهيم مأمون

ذِكرى ، كما شاء الزمانُ أجالَها ... وخطى نكرت العالمين حيالَها
ما المرسلاتُ وما العواصفُ؟ ويحها ... هل جزن بيداً ، أو طوينَ تلالَها؟
وإلامَ يحتثُّ الهجانَ حداتُها ... في مهمهٍ سبقتْ عليه ظلالَها ؟
قل للطوائر في الجواء حوائماً : ... ربُّ السماء لغيركنَّ أحالَها
للريح . تنتظم الغمام ظعائناً ... وتمدُّ من لُمَعِ الشعاع كلالَها
حرم السماء مجالُها ، وكأنها ... سفنٌ تخذْنَ من العباب مجالها
يمشينَ في حرس السماء ، تديرها ... أيدي الهواء . وما وعَيْنَ عقالَها

⊛ ⊛ ⊛

هي آذنتْ «بدراً» بنصر «محمد» ... وعلى يديه استنزلتْ آمالَها
جاءت «بجبريل السماء وحيها» ، ... وحدَتْ بآمال العلا «ميكالَها»
تلك السماء تشقّقتْ بغمامها ... تولي الرّسالة في «العريش» صيالَها
أزجتْ إلى جيش الحنيف ملائكاً ... لمس القليبُ طِعانَها ونزالَها !
مثلَ الحمام برفعها وبخفضِها ، ... وجرى الهوانُ يمينَها وشمالَها !
سائلْ جلودَ الشركِ عن تبريحها ... والشركُ يبكيها ، ويندبُ آلَها
واستوحِ أشلاء القليب : فإنها ... تبيانُ «بدرٍ» إن أردتَ مقالَها
يا يومَ بدرٍ : والمواقفُ جمّةٌ ... فيكَ الحنيفةُ زايلتْ أسمالَها
لبست دروعَكَ سابغاتٍ في الوغى ... ومضتْ بساحِك تستثير رجالَها
تلقى «محمداً النبيَّ» يقودُها ... ويُعزُّ رايتها ، ويُنهضُ قالَها
ويذودُ عنها العادياتِ بحلمِهِ ... حيناً ، وحيناً يستجيبُ قتالَها
ما اللاتُ؟ ما العزّى؟ وأين مناتهم؟ ... غال الحنيف عبادها ، وأزالَها
والشركُ نكسه الجهادُ . فلم يقمْ ... أرأيتَ «هنداً» مثّلتْ أمثالَها؟
تدعو النساء إلى العويل ، وتنتضي ... سيفَ المهانةِ لم يغث أبطالَها
تُغري الوغى بملاحمٍ دمويّةٍ ... شعواءَ تُنهض بالرماح سجالَها
بعثتْ من البيض الخفافِ رسالةً ... حلقتْ لها يافوخَها وقذالَها
وجفتْ غدائرَها وألقت قرطَها ... وتناهبت حسراتُها خلخالَها
تحدو الرجالَ إلى المواقعِ تارةً ... وتسير أخرى تستفزُّ خبالَها
كوساوسِ الشيطان أغرتْ مؤمناً ... فجفا مودّتها ، وعافَ وصالَها !
ما غاظها جيشُ السماء . وإنما ... جيشُ «المهاجر» يوم بدرٍ غالَها!
برز الحنيفُ على الحياض إلى الردى ... يرمي الجهالةَ أو يدُعُّ مِطالَها !
وكأنَّ أرضَ اللهِ تقذفُ مابها ... وسماءَهُ تولي النبيَّ نضالَها !
والكفر في بؤر الخنا متطلعٌ ... للعدوة الدنيا يرى رئبالَها !
ويحسُّ في كفيه أنفاسَ الوغى ... تُبدي من الصمتِ الرزينِ ملالَها
ألوى بجيش الشركِ مرهوبَ القنا ... ونضا قراهُ ، وما نضتْ سربالَها

⊛ ⊛ ⊛

يا باسطَ الكفين في كنفِ العلا ... تدعو السماء . وما تركتَ سؤالَها
النصر وافى ، واصطفتكَ مغانمٌ ... والله قسمَ بينكم أنفالَها
فلذاتُ مكة في رباكَ سوائلٌ ... ترجو نداكَ وما رجوتَ نوالَها!
كانت تريكَ ببطن مكة بغيَها ... أفلا أرتكَ لدى الوغى استبسالَها ؟
خيرَ البريةِ : تلك عقبى صابرٍ ... لاحته مكة : ظاهرت جهّالَها
جنباتُ مُلكِ اللهِ فزّع دعمها ... دعواتك اللائي نثرتَ إلالَها
والعرشُ حومٌ في رحاب المنتهى ... يُصغي لسدرتها وأنتَ حيالَها
ويمدُّ أجنحةَ الجلالِ لمنكبٍ ... بادي اللآلئ يجتلي لألاءَها
جافته بردتُكَ الشريفة مذرأتْ ... ملأُ العلا يُضفي عليه مثالَها
لو يعلم «الصدّيقُ» عند وقوعها ... ما ترتديه لهاله ما هالَها !
وسباه من وادي السنا لمحاتُهُ ... ومضى إليها يبتغي إمهالَها !
ليرى تحيتها لوجهك ضاحياً ... ويراكَ توليكَ العلا إجلالَها !
ويراكَ والسبعُ الطباقُ خواشعٌ ... ويراكَ والدنيا تراكَ ثمالَها !
نورُ الجلالة تحت ثوبك مشرقٌ ... يهدي السماءَ نجومَها وهلالَها ،
من غير هدْيِكَ ما تبسّم طالعٌ ... في أمة أغرى الهوى اهمالَها !

⊛ ⊛ ⊛

تلك الخلائق يا محمدُ : أعرضتْ ... ورأت حرامَ الراشدين حلالَها !
رجعتْ بها الأهواءُ عن غاياتها ... وتنقّصتْ في العاجزين كمالَها
فُتنتْ بزائفة النهوض ، ولو رأتْ ... مجدَ الأوائل أكبرتْ أطلالَها
كفرتْ على مهدِ الندى آباءَها ... وجفتْ على قرب المدى أخوالَها
جادتْ على وادي السماح بروحها ... للناهبين ، وما رعتْ إقلالَها
جعلت لخاذل دينها تسليمَها ... ولناصريه المتقين جدالَها
ولو أنها التمستْ هداكَ لصافحتْ ... غدواتِكِ البيضَ الخطا آصالَها

في الأدب المقارن

الشعر والنثر

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الشعر أسبق ظهوراً من النثر في عالم الفن الذي يحتفي صاحبه بإنشائه وتنميقه، ويتعمد إيداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء. فالشعر يظهر ويرتقي والأمة ماتزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران، أما النثر الفني فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا في أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على إنشاء النثر المنمق، الذي يحوي تعمقاً في التأمل واتصالا في المجهود الأدبي وتدبيجاً للفظ، وتتيح أيضاً للنثر الفني أن يبقى ويذيع. أما الشعر فهو غني بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة؛ ومن ثم ارتقى الشعر الإغريقي كما يتمثل في ملاحم هوميروس رقياً عظيما، والأمة ماتزال إلى البداوة أقرب، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليوناني، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وثيوسيد وأفلاطون.

وكلا الشعر والنثر مدينان في ظهورهما ورقيهما - كسائر الفنون - للدين والدولة بفضل عظيم: ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص في الحفلات الدينية، التي تحفلها الجماعات الأولى في مواسم آلهتها، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقي في عصر الطغاة، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ماتعرف الأمة من مبادىء النثر الفني، من نؤات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتي الديانة والدولة قليلا قليلا، بشيوع الرقي العقلي وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة، فيصبح كل منهما فناً غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام، وتخلصه من الغرض المادي يكون رقيه الفني وصدقه في أداء رسالة الحياة.

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقي الشعر عما كان عليه في عهد البداوة، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره، منافسا له في كثير من مواضعه ومعانيه. فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين، يبرزون في كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثاني. ويشارك النثر الفني الشعر في كثير من خصائصه، أي خصائص الفنون جميعاً، كالموسيقية، والخيال، والتقابل، والتماثل، والتجاوب؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان في شتى الخصائص والموضوعات، فما يزالان متميزين في خصائص، مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هي به أشبه وهو على تأديتها أقدر. فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل في باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحياناً، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة؛ وربما رق النثر في كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن

ما اعتزّ من عزّوا بغيرك هاديا   وبغيرك الدنيا رأتْ إذلالها
خطَرتْ تجر القيدَ تحسب أنها   بلغتْ أمانيها أو استقلالها!
نشوى بحكم الفرد صاغ من العصا   قلمَ المؤدِّب يحتوي إملالها
تدعو وتنهض في الحياة مُضَلَّلاً   جعَل المتاحَ من الأمور مُحالها
تتزاحم الشورى على أبوابها   فتشيح عنها تبتغي أبطالها!
ويعيثُ أكفاء الرجال هداتُها،   ويَحِ المواهب لاترى استقلالها!
وأدُوا البنين، كأنْ شرعتك انتهت   وكأنّ عدْوانَ الزمانِ أدالها!
وكأنّ بغي الجاهلية لم يزَل   يُلغِي الحقوق ويزدري آمالها!
ولعلّ من وأد البنات أنابها   والجاهلية ترتضي إغفالها!
يا آسيَ التقوى: جفاها طبُّها،   بكَ تستجير، فهل ترى ابلالها؟
ذاق الأمرين الأساةُ، وأخفقوا؛   فمن الذي يشفي المقام عضالها؟
لجّت بصيحتها المشارقُ لم تجد   كفا تحلّ بحزمها إشكالها!
نُعلي المعابدَ لا قنوتَ لخاشعٍ   فيها؛ ولا نَنْقى هناك «بلالها»!
ما أكثر الداعين باسم هُداتها   حتى إذا نُودُوا جفَوْا أقوالها!
ورأوا مبادئها مسبّة جيلهم   وكأنها لم تنتظم أجيالها!
هي تلك يا طه شريعة دينهم؟   أمْ تلك دنيا يشربون نهالها؟

ابراهيم مأمون

وإن ساواه فى الموسيقية ؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لها سبيلا وأرحب مجالا ، إلا أن يجيء النثر الحماسي خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ؛ وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً . أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها إذا ماتوطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر تتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الرديء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبيعى أن يرتقيا معاً فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معاً فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثانى فى انخذال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة احياناً ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المتنقلة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى ، وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمى وفلسفى ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وارستقراطيه وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعرياً طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ؛ فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعرى جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثرى وهلم جراً . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدى التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدى رابليه ومونتين فى عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدى كورنى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفنى - فى تأدية رسالة الأدب ويتشاكان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعوداً وهبوطاً مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ مابلغه من الرقى على أيدى أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ، ولا « الخطابة » . ولم تدع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب .

وكان الشعر والنثر معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم :

عك إليك عانية عبادك اليمانية

ولم ينفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وإنما ظل الشعراء

وإن ساواه فى الموسيقية ؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبيلا وأرحب مجالا ، إلا أن يجىء النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ؛ وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً ، أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء ، وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها إذا ماتوطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الردىء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبيعى أن يرتقيا معاً فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معاً فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثانى فى انخذال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة احياناً ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المتقلبة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى ، وبعصور هدوء وركود ، وتأمل على وقلق ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وارستقراطية وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طوراً شعرياً طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ؛ فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعرى جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثرى وهلم جراً . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدى التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدى رابليه ومونتين فى عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدى كورنى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفنى - فى تأدية رسالة الأدب ويتشاركان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعوداً وهبوطاً مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ مابلغه من الرقى على أيدى أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » . ولم تدع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم :

عك إليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وإنما ظل الشعراء

والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لا غاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة وغبطاتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً ، بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون

وكان الشعر الانجليزى أسبق إلى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية حتى فى النثر القليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ، فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً شعرياً رائعاً ؛ وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية ؛ ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه آراءهم فى النقد الادبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكارلى وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطنب

على أن الشعر الانجليزى وإن زاحمه النثر فى العصر الحديث هذه المزاحمة . واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وإنما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده فى القرن الثامن عشر ، إذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر . بل يلتفتون إلى الماضى يروون صداهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومى والمتنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين

فخرى أبو السعود

بين يومى الهجرة والفتح

حمامتان تتناجيان

للأستاذ محمود غنيم

قالت الأولى : هلمى يا أختاه نغادر سطح هذا الغار – غار ثور – قبل أن يدركنا هذا الجيش اللهام ، فيغطينا العثير الذى تثيره سنابك خيله . يالله ! إنه ليحث الخطى نحو قومنا – قريش – ولا قبل لقومنا به ، عشرة آلاف أو يزيدون – إن صدق حدسى – مع كل منهم سيفه القاطع ودرعه المنيعة ، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه . يا لله لقريش ! من أين أقبل هذا الجيش ؟

قالت الثانية : لقد جاء القوم عن طريق يثرب ، لكنى لا إخالهم جميعا يثربيين . أنظرى ، هذه خيل من سليم ، وهذه من مزينة ، وهذه من غطفان ، هم أمشاج أخلاط ، من كل فج وعلى كل لون ؛ ولكن شيئا لا أكاد أتبينه ، تبدو أنواره على أساريرهم ، ويشع بريقه من عيونهم – يؤلف بينهم ، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بنيان مرصوص

بيد أن شعورا داخليا فى نفسى يجعلنى لا أرهب هذا الجيش ، حتى لأكاد أقف على ذباب سيوفهم وفوق شبا رماحهم آمنة مطمئنة ، كأننى فوق منبر الحرم ، أو على حافة مقام ابراهيم . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التى تتوسط الجيش ؟ ألا ترين هذا الرجل الذى يتوسط تلك الكتيبة الخضراء ، يومىء للقوم فيسيرون ، ويقفهم فيقفون ؟ إن لى عهدا بهذا الرجل – إن لم تخنى الذاكرة – آه ! تذكرت يا أختاه ، أليس هذا صاحبنا بالأمس الذى استضفناه فى هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام ؟ إنه محمد ، محمد ، محمد ، ألا تذكرين ؟

قالت الأولى : تذكرت كل شيء ، حتى لكأن هجرته بنت الصباح، وكأن مكانه فى الغار لايزال حارا ، وكأن جرس صوته يرن فى اذنى وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، ألم أحدثك يومئذ أن لهذا الرجل شأنا ؟ ما الذى أوحى إلينا يومئذ أن نحكم تدبير تلك المؤامرة التى اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم ؟ يوم عششنا بفم الغار ، وما كان فم الغار لنابعش ، ونسجت العنكبوت خيوطها على بابه ، وما كان لها به عهد ، وأرسلت الشجرة الجرداء ذوائبها فاعترضت الطريق إليه . لقد تضافرنا على تضليل القوم حتى ضل القوم ، فظلوا يتخبطون فى كل مكان ، ويهيمون فى كل واد ، يبحثون عن محمد ، ومحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لعثر عليه

تذكرت يوم تألب شبان قريش على محمد ، وأحاطوا بداره إحاطة السوار بالمعصم ، ينتظرون طلوع الصباح ، فيعطرون أديم الأرض بأطيب دم جرى فى أطهر عروق ، ويفصلون أعظم رأس عن أكرم جسد ، وكيف أن محمدا تغفلهم فى الهزيع الأخير من الليل فأضجع عليا فى فراشه ، وسجاه ببرده الحضرمى ، ليوهم القوم أنه هو ثم انسل من بينهم ، والكرى آخذ بمعاقد أجفانهم . كم كان ليلا هادئا ساكنا ، لم يقطع عليه سكونه إلا ديب محمد الخافت ، يسير على أطراف أصابعه ، وإلا طرقة هامسة من أطراف أنامله على باب صديقه أبى بكر سرعان ما استجاب لها ، كأنهما كانا على ميعاد . على أنهما لم يأمنا أن يخرجا من باب الدار ، فخرجا من فجوة فى الجدار ، ثم اتجها فى طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار ، وقد آذن أن ينبلج النهار ، فقابلناهما بالتجلة والاكرام ، طيلة ثلاثة الأيام . كم كان يثير إشفاقى وإعجابى ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب فى طبيعة الانسان ، مقرونا بالثبات الذى تبعثه قوة الايمان !

نعم تذكرت ذلك كله ، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبى بكر يندس بين قريش نهارا ، ثم يوافيهما فى الغار ليلا ، فيسر إليهما ما يأتمرون به ، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبى بكر ، يمر بغنم عليهما موهنا فيحتلبان ويذبحان ، ثم يعفى بها على آثار عبد الله . وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتمسا ما يعلقان به الطعام فشقت أسماء بنت أبى بكر — ذات النطاقين — نطاقها شطرين ، علقت الطعام بشطر ، وانتطقت بشطر . وتذكرت سراقة بن مالك وما كان من أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير ، فخرج يلتمس محمدا ، فاذا محمد منه عن كثب . لكنه ما كاد يصيح صيحة الظفر ، حتى شعر بجواده قد عثر ، فأنهضه فكبا ثانية ، ثم ثالثة ، حتى كأن الحصان فقد قوائمه ، أو فقد الأرض التى تستقر عليها قوائمه ؛ وإذ ذاك رأى الفارس أن الأرض أثبت ظهرا من حصانه ، فترجل ودنا من محمد ، لكن لا ليقبض عليه ، بل ليعتذر إليه . ألم أخبرك يومئذ أن الرجل يكتنفه غموض وتحوطه أسرار ؟

قالت الثانية : دعينى مما تقولين ، أى سر فى جواد يكبو بصاحبه ، أو فى حمامة تبيض ، أو عنكبوت تنسج خيوطها ، أو شجرة ترسل أغصانها ؟ إنما السر كل السر فى تعاليم هذا الرجل التى تنفذ إلى قلوب أصحابه ، فتفعل فيها مالا تفعل خمر الأندرين ولا سحر بابل . لقد هاجر الرجل وهو وحيد طريد ، فمن أين جاء بهذا العدد العديد ، الغارق فى يلب الحديد ؟ ، أتذكرين ما كنت تتنبئين به يومئذ من أن أهل المدينة لن يكونوا أبر به من أهله الذين آذوه وطردوه ، ولو تمكنوا منه لقتلوه ، ولا من اهل الطائف الذين أغروا به الصغار ، لحصبوه بالأحجار ؟ أما كنت تقولين : ماذا عسى أن تكون إقامة محمد بين ظهرانى أهل المدينة ، والمدينة معقل اليهودية التى يناصبها العداء ، ومهد الفتن التى لاتهدأ ثائرتها بين الأوس والخزرج ، وبينهما ما بينهما من تراث ودماء ، يتوارثها الأحفاد عن الاجداد ؟

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

لقد كنت تقولين ذلك ، وحق ماتقولين ، فليت شعرى ماذا فعل محمد حتى استسل تلك السخائم المستأصلة من نفوس القبيلتين ؟ وكيف هادن اليهود ، وهم اشد تمسكا بتوراتهم ، من اهل مكة بهبلهم ولاتهم ؟ بماذا تفسرين هذا ؟ وماهو هذا الذى يأتى به يسميه قرآنا . فيصبه فى الآذان كما تصب الخمر فى الأفواه ، ويتلوه عليهم كما تتلى الرقى والتعاويذ ؟ إن لم يكن خمرا ، ولم يكن سحرا ، فاى شيء هو ؟ لقد سافر محمد فى قلة وذلة ، لا ينفر منه وحش ، ولا تشعر بوطأته أرض ، فما باله يعود فتندك الأرض تحت وقع سنابك خيله ، وتلوذ الوحوش منه بقمم الجبال ؟ كان هو وزميله ودليله عند هجرتهم يسيرون ليلا ، ويختفون عن العيون نهارا كما يزور الحبيب الحبيب ، عند مايخشى عين الرقيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

كانوا لا يأمنون نميمة الشمس ، ولا إغراء القمر ، ولا وشاية ظلالهم بهم ، ولا يطمئنون إلى سلوك طريق معبدة ذلول ، فهم أبدا يعوجون ويعرجون ويصدون وينحدرون ، فما بالهم الآن يسيرون فى وضح النهار ، ويكادون يغطون قرص الشمس بما يثيرون من غبار ، ويهتكون حجابها بكل صارم بتار ؟

لشد ما تغيرت الحال ! ولشد ما تدهشنى تلك المغناطيسية التى تجذب اليه الرجال ! ولعمرى ما رأيت اتباعا أشد تعلقاً بصاحبهم من تعلق أصحاب محمد بمحمد . أو ما تذكرين يوم كانت قريش تطرح بلالا على الرمضاء اذا اشتد الهجير ، وتلقى على صدره حجراً ينوء بحمله البعير . ليكف عن اتباع محمد ، فلا يزيد على قوله : احد ، احد ؟ أو ما تذكرين يوم أسرت هذيل زيد بن الدثنة وباعته من قريش

لتقتله ببعض قتلى بدر ، فتقدم اليه أبو سفيان ، وهو واقف على أبواب الأبدية وقال : أنشدك الله يا زيد : أيسرك أن محمداً الآن فى مكانك تضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن تصيبه شوكة فى قدمه وأنا فى أهلى . أليس معنى ذلك أن القوم يتفانون فى حب محمد ودين محمد ، وهم أشد ما يكونون تفانيا اذا حزب الأمر ، واشتدت اللازبة وتحرجت المواقف ،

قالت الأولى : لقد ذكرتنى بأبى سفيان وإننى أكاد ألمح شخصاً يشبهه فى سواد الجيش ، يسير تحت لواء محمد . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، كأنه هو ، عجباً ! أترينه هو أيضا سرى فيه تيار كهرباء محمد وجذبه مغناطيسه فاستجاب له ، بعد أن ناهضه من بدء دعوته ؟ أليس هو قائد جيش المشركين ببدر ، ثم بأحد ثم بالخندق ؟ ثم أليس هو زوج هند بنت عتبة التى مضغت كبد عمه حمزة بأحد ، وأرادت أن تشق صدرها بابتلاعها لولا أن شعرت بمرارتها فلا كتها ، ثم قذفتها ، والتى آلت الا يطأ فراشها أبو سفيان بعد بدر حتى ينتقم لأبيها وأخيها ، والتى جدعت أنوف صرعى المسلمين بأحد ، وصلمت آذانهم ، واتخذت من كل ذلك قلادة تحلى بها عنقها ؟ ليت شعرى أترينها هى أيضا قد استجابت لمحمد فاستجاب بعلها ، إنها لأحاجى وألغاز

قالت الثانية : حقا أننى لألمح أبا سفيان يسير تحت لواء محمد بجوار عمه العباس ، وليس غريبا أن يكون تيار محمد جرفه كما جرف آلافا من أمثاله . إن تيار محمد جارف ، وريحه عاصفة تجتاح كل ما يعترضها فى طريقها ، ولئن كان أبو سفيان ناهض الاسلام ضعيفاً لما ضره أن يؤيده قوياً . وما أقل أشياع الضعيف حتى يشتد ساعده فيكثر أشياعه ، وينضوى تحت لوائه من أسرف فى عدائه . وهل تعتقدين أن كل من ناوأ الاسلام ناوأه مقتنعاً ببطلانه ، أو أن كل من أيده أيده بدافع من وجدانه ؟ وهل كان أبو سفيان بدعا فى الرجال ؟ كم لأبى سفيان من أمثال وأشباه ، كانت لهم تجارة وجاه أشفقوا عليهما وعلى أنفسهم من الهوان فصدهم ذلك عن الايمان . أما وقد تغير مركز محمد فيجب أن يعتدل موقف هؤلاء من محمد . وما يدريك أن أبا سفيان سيجنى من وراء إيمانه خيراً كثيراً ؟ وما يدريك أنه سيخرج من بين صلب أبى سفيان وترائب هند من يفتح البلاد ويتحكم فى رقاب العباد باسم محمد ودين محمد ؟ على أن أبا سفيان ما لجأ إلى الايمان ، إلا بعد ما قاساه من الهوان : أما سمعت ما تحدث به الناس أنه بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية جعل قلب أبى سفيان لا يستقر بين ضلوعه خشية محمد وبطش محمد فتسنم راحلته ، وتوجه شطر المدينة ليؤكد العهد إن وفق ، أو يستشف نوايا محمد إن أخفق ، فنزل أول ما نزل على ابنته أم حبيبة زوج محمد ، فما كادت تراه حتى طوت فراشا كان مبسوطا أمامها ، فقال : أتطوين الفراش رغبة بأبيك عنه ، أو رغبة به عن أبيك ، فقالت : لا والله إنه فراش رسول الله الطاهر الأمين ، أخشى عليه دنس الشرك ورجس الوثنية ، فتشاءم الرجل ، ونهض مغضباً ، ودخل على محمد فازورعنه جانبه ، فلجأ إلى أبى بكر فطوى عنه كشحا فلاذ بعمر ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . عندئذ ارتد على عقبه يجر ذيل الفشل وخيبة الأمل . على أنه بعدها لم يغمض له جفن ، ولم يهدأ له جأش ، وجعل يتوقع غزو محمد لمكة ، وإن كان محمد أحاط هذا الغزو بالكتمان . ولقد اشتد القلق بأبى سفيان ، فخرج منذ حين ليكشف أمر المسلمين . نعم لقد شاهدته منذ حين فى نفر من قريش ، خرجوا يستطلعون خبر الجيش ، فلقد تناقلت خبره الركبان ، رغم مبالغة محمد فى الكتمان . وكأننى بأبى سفيان ما كاد يلوح غبار الجيش لعينيه ، حتى سقط فى يديه . وكانت فى نفسه بقية شك فى دعوة محمد ، فما هو إلا أن رأى جيش المسلمين ، فاذا الشك يقين ، وكأننى به وقد مثل بين يدى محمد . فنظر اليه نظرة يكمن فيها شبح الموت ، ولسان حال الرسول يقول :

إن على الله أن تبايعا   تؤخذ كرها أو تجىء طائعاً

فلم يسع أبا سفيان إلا التسليم والاذعان

قالت الأولى : ها هو ذا الجيش قد دنا من مكة حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، وإننى لألمح أبا سفيان واقفاً بمضيق تمر عليه جيوش المسلمين فيلقا فيلقا ، وما إخال هذا إلا من تدبير محمد ، حتى يلمس الرجل مقدار ما يستهدف له قومه من الخطر إذا حدثتهم أنفسهم بالمقاومة ، فيذهب اليهم نذيرا ينقل ما ألقى فى نفسه من الرعب إلى قلوبهم . يالله لسياسة محمد ! إنه يريد أن يتم الفتح بدون أن تتطاير الرءوس ، أو تتناثر الأشلاء ، أو تراق قطرة من دماء . هل تريدين أن تتبينى صدق ما أقول ؟ أرهفى أذنيك . أصيخى إلى هذا النداء : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » أسمعت النداء ؟ أتحققت صدق رغبة محمد فى السلام ؟ وكيف يريد أن يحقن دماء أهل المدينتين : التى ربته وليداً والتى آوته طريداً . ها هو ذا أبو سفيان يتقدم الفاتحين داعيا قومه إلى ترك الكفاح وإلقاء السلاح . وها هو ذا جيش الفاتحين ينقسم أربعة أقسام ، يدخلون مكة من جهاتها الأربع : الزبير بن العوام على رأس فريق ، وخالد بن الوليد على رأس فريق ، وسعد بن عبادة على رأس ثالث ، وأبو عبيدة بن الجراح على رأس رابع . ولست أظن أن هؤلاء سيلقون مقاومة ، وإن كنت أشك فى هؤلاء الذين

يقيمون باسفل مكة ، وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل ، فما أظنهم يخلدون إلى الاستسلام ، بل يأبون إلا امتشاق الحسام . على أن خالدا سوف يعمل فيهم نباله ونصاله ، فلا يلبثون إلا ساعة من نهار يلوذون بعدها بأذيال الفرار ، وتستطيعين أن تعتبرى هذا اليوم فى تاريخ مكة فاصلا بين عهدين ، خالدا على مر الجديدين . هنيئا لمحمد ! لقد غادر مكة آبقا تحت أذيال الظلام ، ثم دخلها دخول القياصرة العظام ، فليصدح مؤذنه بالأذان حتى يشق أجواز الفضاء ، وليقم شعائره فى ضوء النهار لا من وراء ستار ، وليطف بأرجاء مكة آمنا مطمئنا ، وليتفقد منزله إن كانت أبقت أيدى القوم عليه ، وليزر معاهد صباه ، وليغش حراء الذى كان يتحنث فيه ، وليملأ عينيه من أرض مكة وسمائها ، وليملأ رئتيه من هوائها ، ليتنفس هواءها الآن نقيا صافيا ، بعد أن حرمه عشرة أعوام ، وتنفسه مسموما موبوءا ثلاثة عشر عاما . ولتتداع إلى خاطره الذكريات ، وليستجمع العمر فى لحظات . ويل لهبل ومناة ، والعزى واللات ، ولتلك الأصنام المشدودة إلى الكعبة بالرصاص . ولتلك الصور التى تمثل ملائكة السموات غوانى فاتنات . هذا آخر عهدهن بأستار البيت ، لشد ما كان يمقتها محمد . وكأنى به يعمل فيها معول التحطيم ويحرم من أجلها على قومه النحت والتصوير ، وهكذا تسىء الوثنية إلى الفن كما أساءت إلى الدين ، ولكن ما تظنين محمداً فاعلا لقريش ؟

قالت الثانية : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، إن محمدا أبر بقومه من أن يجد عليهم أو يؤاخذهم بما اقترفوا ، وإنه لأكبر من أن يتشفى بالترة عند المقدرة ، وقريش بأسرها المعروف كما ترهبها حدة السيوف . ولو أن محمدا أراد الانتقام لرأى من المهاجرين محبذين ، ومن الأنصار أنصارا . إن سيوف أولئك وهؤلاء لتظمأ إلى ما فى عروق القوم من دماء ، أو ما سمعت سعد بن عبادة عندما دخل مكة صاح قائلا : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فما هو إلا أن سمع محمد صياحه ، فتقلصت شفتاه ، وقدحت الشرر عيناه ، ثم اختطف الراية من سعد ، وأعطاها قيسا ابنه . إن الرجل لا يريد بقومه شرا ، وإنه ليضرب للعالم بذلك المثل الأعلى فى الصفح والمغفرة عند القدرة ، وإنى لأذكر لمحمد مواقف من هذا القبيل تعتبر مثلا عليا فى الصفح الجميل . فلقد سمعت أنه يوم حشد هذا الجيش لفتح مكة ، أخذ على الناس المواثيق أن يتكتموا أمره ولا يذيعوا سره ، ولكن حاطب بن بلتعة كان له بمكة ولد وأهل أشفق عليهم فكتب إليهم حتى يتجهزوا لقتال محمد ؛ بيد أن خبر الكتاب نمى إلى محمد ، فسرعان ما أرسل عليا والزبير فى أثر حامل الكتاب ، وكان امرأة فأدركاها فاعترفت بجرمها وأخرجت الكتاب من بين غدائرها . أتعرفين ماذا كان جزاء حاطب وهو من جيش الرسول ومن شهود بدر ؟ لقد جوزى على هذه الخيانة العظمى بالصفح والغفران ! قال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ، فقال الرسول ـ بعد أن أطرق هنيهة ـ « دعه يا عمر وما يدريك أن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وهكذا تذكر النبى بجوار هذا الغدر موقف الرجل يبدر فاغتفر الاساءة اللاحقة للاحسان السابق وخالف مادرج عليه الناس ، فكل الناس

ينسى من الاحسان طودا قدرسا   وليس ينسى ذرة ممن أسا

ولقد تمثلت محمدا إذ وقف بأحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها فرأى عمه حمزة مبقور البطن مجدوع الأنف مضوغ الكبد ممثلا به أى تمثيل . فأقسم لئن أظفره الله بقريش ليمثلن بسبعين من قتلاهم ؛ فها هى ذى قريش مطأطئة الرقاب ، وها هى ذى رءوس قريش دانية القطوف ، فما يمنع محمدا أن يطفىء من غلته ويبر بأليته ؟ إنه المتسامح فى أجمل صوره وأعلى أمثلته . على أننى لا إخال محمدا مهما بلغ من تسامحه يعفو عن الحويرث الذى أغرى على زينب ابنته عند هجرتها ، أو عن هذين الرجلين اللذين أظهرا الاسلام ثم ارتكبا جريمة القتل بالمدينة ثم ارتدا إلى الشرك ، أو عن قينة ابن خطل التى كانت تتغنى وتسمر بهجائه ، فهو لابد قاتلهم ، ولعلك لا تنكرين ذلك على محمد متناسية أن اللين لا بد أن يشوبه العنف وإلا شاه جماله . ولقد كانت لمحمد بجانب تسامحه البالغ صرامة بالغة . ولعلك تذكرين أنه يوم قبل الفداء من بعض أسرى بدر وأطلق بعضا آخر أبى إلا أن يضرب عنق النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، لشدة ما ناله من الأذى على أيديهما قبل هجرته . ولعلك تذكرين أنه ما كادت جنود الأحزاب تتخلى عنه فى غزوة الخندق حتى تفرغ لليهود الذين تألبوا مع العدو عليه فى ساعة العسرة فأباح دماءهم وأموالهم ونكل بهم شر تنكيل ، وكيف أنه كان يعترض لقريش وغير قريش من المشركين يريق دماءهم ، ويسلبهم إبلهم وشاءهم حتى يعتصموا بالاسلام ، وما كان ذلك تجنيا من محمد ، ولكنها الدعوة الروحية يجب أن تؤيدها القوة المادية ، حتى ينظر إليها الناس نظرة جدية ، وهكذا تمهد السيوف للأقلام ، ويتضافر الاثنان على نشر لواء الاسلام

قالت الأولى : ثم ماذا بعد فتح مكة

قالت الثانية : ما يدرينا ؟ لقد كان محمد يعد قومه ملك فارس والروم فيتهكم به كفار قريش قائلين : « هذا ابن أبى كبشة ـ يعنون زوج مرضعه حليمة ـ سيرث ملك الأكاسرة والقياصرة » ، ولعله لو امتد بنا الزمان بضعة أعوام ، شهدنا تحقيق هذه الأحلام

قالت الأولى : لقد أحسنا إلى محمد يوم آويناه فى الغار ، وساعدناه على الفرار .

قالت الثانية : أكبر الظن أننا أحسنا إلى الإنسانية جمعاء : استحدثنا ثقافة ، وأقمنا بناء حضارة ، وغيرنا مجرى التاريخ .

كوم حمادة
محمود غنيم
مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

نفحة شرقيـــة

في أدب غربي

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

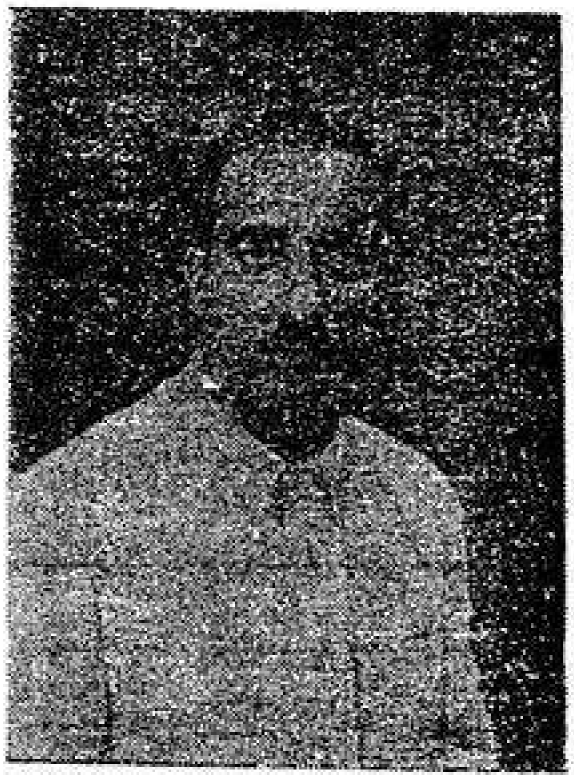

كان شاعر الالمان «جوته» يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق وشعره. فدرس العبرانية وأدمن مطالعة التوراة. وكان يهتز لها لما يجده بها من أريحية الشعر، وبخاصة «قصة راعوث، ونشيد الأناشيد». وهو يعتبر النشيد نسيج وحده في الرقة وحرارة الحب، وكان يستروح منه نسمة دافئة تهب من بقاع كنعان، وتتراءى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيوب العاطرة. ويأنس من بعيد زحمة المدن بني اسرائيل، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأبهة ملكه.

وينتقل جوته من العهد القديم العبري، إلى عصر الجاهلية العربي. حيث يقع على الكنوز المذخورة في المعلقات. تلك القصائد المطولات التي أحرزت الفوز بميدان النزال الأدبي في أسواق الشعر عند العرب. وهو يتمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين، لا يبرحون في غارات إثر غارات، يؤججها مابين قبائلهم من ترات وخصومات. ويقول شاعر الألمان إن المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التي تربط أبناء القبيلة الواحدة، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام والبسالة، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثار، وطلاب المجد، والتماس الفخار. وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدي هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها، بما يبثه من الأسى والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء. ويزيد هذه القصائد العصماء قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلمسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذي شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد. وغير خاف أن العالم المسيحي كان من أيام الحروب الصليبية سيء الرأي بطبيعة الحال في صاحب الشريعة الاسلامية. وكانت الكنيسة تتجاهل وجود القران وتحرم ترجمته، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع عشر، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائما بدحض ما جاء به وتفنيده. ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة، وحرصا على تزكية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم. ثم بزغ على الأثر عصر الشك، أو ما يسمونه عصر النور. وكان دعاته يحملون على الأديان كافة حملتهم الشعواء، ولا يريدون أن يروا في أصحابها إلا دجاجلة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون. إلا أن الأحوال تعدلت، وانبرى بعض المحققين من جهابذة الغرب الى هدم التخرصات المنسوبة إلى محمد في العالم المسيحي، وكتبوا سيرته الشريفة بروح عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق في الموضوع فانجلى لكل ذي عينين محمد رجل الدين، الثابت اليقين في الله الواحد الأحد، وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصي الهند إلى ربوع الاندلس. واطلع شاعرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد، وحيا فيه النبي العظيم والروح القوى الأمين، حاطم الأصنام الداعي إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع مختارات منه مأخوذة عن الترجمة الألمانية. وظل طويلا يمعن في درسه إمعان الباحثين. وهو يشير إلى أن القارىء الأجنبي قد لا يحبه لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب اليه، وفي النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز في بيان تعاليم الدين «ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالاخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم»

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة. ولا يرى جوته في هذا الترديد والتكرار مايراه النقاد الغربيون. لأن النبي لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتنويع في ضروب الكلام، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام، لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان. بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف. وإنما هو نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها. فالكتاب العزيز أنزل ليقتضى الناس الخبوت والايمان، لا لمجرد المتعة والاستحسان، واذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار، وإنما ضرب الامثال للموعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تأليف قصة تمثيلية عن محمد، وشرع فيها من أيام شبيبته فنظم منها مناجاة للنبي وهو بالليل وحده في الخلاء تحت السماء

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هذه الآيات في دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؛ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً وما أنا من المشركين » . ثم أدار جوته حواراً بين محمد ومرضعته حليمة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « علي » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الإنسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعري لفيض الاسلام وسرعة ذيوعه ودخول القبائل والأمم فيه أفواجاً أشبه ما يكون بالنبع في الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاد ، ويزخر بما ينصب فيه من الروافد فيتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم تزل فكرة هذه الرواية ماثلة في مخيلة جوته حتى وضع مشروعها . وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعداً إلى الله تعالى الذي تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكاشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم في الفصل الثاني يقوم النبي يناصره علي بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما ركب في جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفي الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ويطهر الكعبة من الأوثان . وتستوي دعوته ديناً مقرراً ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولاً وفعلاً . ويظهر الرجل السياسي إلى جانب الرجل الديني . وفي الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيه محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية . ثم تعاوده عقابيل السم فينتقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته في مدينة « ويمار » - وهي الآن تكريماً له عاصمة الريخ الألماني - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بها ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة . ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم واستماعه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم في المسرح . وهو يذكر في هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكاراً باقياً .

وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغتبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمين إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذي عرفه وأحبه في الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعاً وأي مقنع . ولكن الرجل أبت له نفسه الرحيبة ألا يجتمع فيها الشرق السامي والشرق الآري كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

فقد أقبل الرجل يتعرف إلى المئات والمئات من آلهة الهند ويشهد في التهاويل والصور أوثانهم الهائلة المخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واحتار بين أتاويه مذاهبهم ، وتعجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات في نظرهم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآله والراقصة) و(موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (بيدبا) التي وضعها للملك (دبشليم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الفظيعة ، ونفور أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كليلة ودمنة فهي تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما انطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الالماني في ذلك الاوان قد أوفى على الستين . ولكنه يجدد الشباب أبداً كالخالدين . وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلابل ، والحب الحسي والوجد العلوي . ولقد استغرق جوته في هذا الأدب ونسي عالمه الخارجي وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذه صاحبه ومرشده الديني في هذا الجو الشرقي المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي أرق شعراء الفرس الغنائيين .

وزاد اعتزال جوته لما حوله ، وأبعد بفكره أميالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازي أبواب الشرق ، الشرق مهد الانسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، الى الوحدة والبساطة .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى. حياة حياها هو أيضاً ، حياة نفس تتقبل الوجود بمنتهى الحرية والمتعة، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها وبين الأرض . وتواجه التعصب والجمود بالتصوف الحي والاحساس بالشمول . لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ . الممالك تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغناء بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون ، فلا تتخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب . إن جوته لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من اعماق نفسه . فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر . إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني ، يحس بالشرق والغرب يلتقيان فيه . وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس هو « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » .

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً ؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على الترتيب : كتاب المغني . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا . كتاب الساقي . كتاب المثل . كتاب الفرس . كتاب الخلد . وفيما يلي ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار :

تشير الهجرة

« الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً ، وعروشها تثل وممالكها تنهار . فهاجر وامض إلى الشرق الطهور ، تستروح الطيب من الآباء الطيبين . وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك ريعان صباك كأنما نضح عليك من نبع الشباب السرمد الخضر عليه السلام .

« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية الأولى . إلى الأزمان التي تلقى فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض . فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهناً . إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يجلون السلف . وينهون عن كل دين غير دينهم

« أريد التملي من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود : فكر قانع وإيمان واسع

« أريد معاشرة الرعاة في المنتجعات ، والاسترواح في ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا في الطرح والبن والمسك ، طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضر

« وسيان أنجدت أو أتهمت ، فان أغانيك يا حافظ تؤنسني في وعثاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا ، وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ، ويرهب قطاع الطريق

« هنالك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خانه ، أريد أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حبيبتي خمارها ، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر

« وليعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره ، والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره ، أن كلمات الشاعر لا تبرح حائمة حول جنة الخلد ، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود »

تعويذة

« لله المشرق ، ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا

« هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق . سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيرا

« ينازعني وسواس الغي . وأنت المعيذ من شر الوسواس . فاللهم اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

« ومهما تضللنا النزعات وتزين لنا الشهوات . فالنفس التي لا تذهب في الغي شعاعا ولا تضيع ضياعا ، لا تلبث بالادخار والآباء أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء

« وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير : هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك إذا بليت . واشكر ربك إذا عوفيت

منن أربع

لكيما يسعد العرب في البيداء ، راتعين في بحبوحة الفضاء ، أولاهم المولى ذو الخير العميم مننا أربعا :

اولى هذه المنن : العمامة . وهي زينة أروع من التيجان كافة . ثم خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان ، حتى ليعمروا كل مكان . ثم حسام بتار هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار . ثم القصيد يؤنس ويفيد ، ويسترعي أسماع الخرد الغيد)

الحرية

« دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح ، وابقوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر ! إنني لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع ، وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر

وما زينت السماء الدنيا بمصابيح ، إلا هدى للناس في البر والبحر ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبلة السماء »

عناصر الشعر

« كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاه العامة ويلذ سماعه الخاصة ؟

« إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم . فان الحب إذا مازج الشعر

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتتلألأ فيه كميت الخمر كالياقوت فانما العشاق والندامى هم وحدهم من ترتاح لهم وتهش لمجلسهم

كذلك يطيب فى الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النفير ولجب الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلج أزهر دان الناس للبطل ، وغدا بينهم مؤلها بما أصاب من النصر المؤزر

« ولا معدى للشاعر فى آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء . فما كان لمثله أن يلقى القبيح المشنوء . بمثل ما يلقى الحسن المستحب

« فاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة . فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى أجمعين . إلى أبد الآبدين

أسير :

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل ، قوام سبط ، وأعطاف بضة لينة ، كأنما هى لحورية من جنة النعيم .

(أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل ، هى بعينها التى جادت بهذا كله ، هى التى سمحت ثم ولت هاربة . لقد تيمتنى وتركتنى ما حييت أسيرها)

كتاب مطالعة :

(سفر ما أعجبه بين الأسفار ؛ ذلك سفر العشق . لقد أمعنت فى مطالعته . بضع صفحات من اللذة ، وأبواب مستفيضة فى الألم . اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز . على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيلة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام :

(واها ! ما أسعدنى ! ... كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر فى طريق ، وكانت بغيتى البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشرا تاجه متبخترا فى هيئة المدل الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت . فقلت له : يا هدهد ! فى الحق إنك لطائر جميل . إنطلق يا هدهد وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبأ ،

(فقال الهدهد : إن التى أنت موفدى لها ، قد أودعتنى كامل سرها ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا أغبطك على سعادتك . فأنت محب وأنت محبوب . ودوام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)

قارورة العطر

(لكى يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ، ويزيد فى انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . فلابد له من عالم منها ليستقطر ملء قارورة صغيرة ، قارورة مخروطة مستدقة كأنامك لكى تهدى اليك ، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد فى متاعنا ؛ هيهات . وكم هلكت أنفس لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمور)

لذة الإحساد

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها . ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه . وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه . وشعاع الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه . فليكن أحلى من هذه جميعاً فى نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود به . فما أحلاها وقتئذ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة فى السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام .

مثل الايمان

تحدرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة ، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضربا . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيرا . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما . فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز . وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهى اليوم على تاج الشاه درة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء

الدين

من الحماقة التعصب للدين . واذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين .

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد . وان كان فى الديوان زيادة للمستزيد . ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة . وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربى من الروح الشرقى .

والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وآذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب ، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولعاً بكل مطلع للنور حسيا كان أو روحيا . وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الأستار ، وعيناه إلى النافذة وهو يتمتم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير : المزيد من النور ! المزيد من النور

عبد الرحمن صدقى

علوم القدماء عند العرب

ولا سيما فى القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الاسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية فى آخر مراحلها

فلم يكد العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم . أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذى تركه اليونان والذى قد توطن فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذى القرنين . ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية فى الشرق الأدنى ، ومكنتها من الازهار فى تلك المنطقة الرحيبة التى احتضنتها فى دائرة حدودها السياسية . فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التى كانت قد بدأت فى تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد فى آخر القرن الثانى وفى القرن الثالث للهجرة . ولما كانت لغة التراجم الأولى هى اللغة السريانية فانها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفى مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذى كان يشتغل « فى بيت الحكمة » ذلك المعهد العلمى الذى أسسه المأمون الخليفة العباسى ببغداد لترجمة كتب العلوم . حنين هذا هو الذى خلق المركز الرائع لآراء جالينوس فى القرون الوسطى فى الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذى بذل فى ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة ، وأن حنينا ، كما أوضح بنفسه لم يكتف بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أى - دورة التراجم - مرحلة استعداد ، وتبعها فى القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم الطبيعية والطبية فى بلاد الاسلام . وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساس متين من العلوم اليونانية مضافا إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود ، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم . وفى الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أو كاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إنّ أبرز ما فى ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة : محمد بن زكرياء الرازى (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامى وأحد أطباء الدنيا الخالدين ، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعيا له أكبر الأثر فى أوربا بصفته وسيطا لنقل الطب الاسلامى إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون ، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروتى (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين فى دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجا .

ما أجوَدَ ثقافة هذا الرجل الخوارزمى العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية ، كما يظهر من مقدمة كتابه فى الصيدلة إذ يقول :

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم فى علم ما أو عمل ، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية فى المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها . ولو كان ذيسقوريذس فى نواحينا ، وتصرف جهده على تعرف ما فى جبالنا وبوادينا ، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية ، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفية ، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفازتنا بمشكور مساعيهم علما وعملا . وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند ، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين ، ثم المباينة بيننا وبينهم فى اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم فى المجانبة بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة . ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية ... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت فى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فى الشرايين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها » .

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا فى فئة معينة من

العلماء ، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع .

ها هى ذى بغداد بمدرستها الفلسفية الطبية التى هى خليفة مدرسة الاسكندرية المشهورة ، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران . ومن كبار العاملين بها فى القرن الرابع المترجم المسيحى أبو بشر متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨) ، وأبو نصر محمد الفارابى الفيلسوف الاسلامى (المتوفى سنة ٣٣٩) ، وتلميذه الفيلسوف المسيحى يحيى بن عدى (المتوفى سنة ٣٦٤) ، والباحث المحقق أبو الحسن المسعودى (المتوفى سنه ٣٤٦) ، وغيرهم من الفضلاء . وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدى (المتوفى بعد سنة ٤٠٠) فى مؤلفه المسمى «بالمقابسات» ، ذكر مجالس أبى سليمان السجستانى المنطق (المتوفى بعد سنة ٣٩١)

فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية فى الحضارة الاسلامية ، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت فى القرن الخامس أيضا خصوصا فى بغداد ، مع امتداد أشعتها إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر .

تتمنى أن نبحث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليونانى فى الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ فى إحدى مدارس الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيبين فيلسوفين ، وإن كانا دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا فى تاريخ الطب والعلوم الطبيعية فى عالم الاسلام . هما أبو الحسن المختار ابن بطلان من نصارى بغداد ، وعلى بن رضوان المصرى . تتلخص مناظرتهما فى أن كل واحد منهما كان يرغب فى التدليل على علو كعبه فى علوم القدماء ، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها عليه . فإنا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت فى تاريخ الحكماء لابن القفطى ، وفى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين شخصية الآخر أى تشابه ، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما أن يكونا صديقين ؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة كل منهما من صاحبه فى صناعة الطب .

درس ابن بطلان الطب والفلسفة فى الكرخ (حى من بغداد) على أشهر الأساتذة ، وأكثرهم من النصارى ، وتدل مؤلفاته على أنه لم يكن متطبيا فقط ، بل تبحر أيضا فى الآداب العربية والعلوم الاسلامية ، كما قال عنه ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً (أى من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به . ومما يدل على ذلك ما ذكره فى رسالته التى رسمها «بدعوة الأطباء» . فى هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين المدعين بالطب ، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين .

يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عند ماترك بلدته التى حرمت عليه العودة اليها فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ متجهاً الى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فحلب حيث مكث زماناً ، ثم واصل السفر الى انطاكية فاللاذقية فيافا حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان . ثم غادر مصر بعدئذ الى القسطنطينية ثم عاد منها فى آخر الأمر إلى انطاكية . قال ابن القفطى : « فأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار ، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع الى العبادة إلى أن توفى بها » . وكانت وفاته ـ خلافاً لما زعم ابن القفطى ـ بعد سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء بيمارستان انطاكية فى السنة المذكورة . وعند ما كان فى مصر أرسل ابن بطلان الى المؤرخ الكاتب البغدادى هلال بن المحسن الصابىء كتاباً مفصلا عن رحلته ، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل مارآه ، كما أنه لا يزال هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحى التى زارها ابن بطلان ، فلذلك أورد ياقوت الحموى فى كتابه المسمى بمعجم البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان . ودليلا على كل هذا نذكر شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية . قال : « وهى مدينة يونانية لها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة ، وكان فى أول الاسلام مسجدا ، وهى راكبة البحر وفيها قاض للسلمين وجامع يصلون فيه وآذان فى أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ، وقاضى المسلمين الذى بها من قبل الروم » .

أما ماذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة كما كانت . فهى دورة الانحلال والضعف السياسى للدولة الاسلامية ، قد أصبحت البلاد التى كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة ، وقامت خلافة الفاطميين بمصر ، أضف إلى هذا تفشى الوباء والمجاعات بأقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحس الباقون منهم بفقدانهم وبالخلوة من بعدهم . وإنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلمى العظيم ولا اتصال

العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغما عن اختلاف العقائد الدينية

على أن ابن بطلان النصراني هذا الذي كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم؛ فانه «لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولي عليها سأله رد أمر النصارى في عبادتهم اليه، فولاه ذلك، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم، وخرج عنهم ... وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم» (مختصر من كلام ابن القفطي)

قال ابن أبي أصيبعة: «وتوفي ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولداً، ولذلك يقول من أبيات:

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان في اكثر مزاياه؛ فلم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب اليه، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة، وكان معجباً بنفسه طماعا بخيلا، لما نقد ماله ذهب عقله، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يحملاننا على العطف عليه والاعجاب به. هذا ما يمكننا تأكيده عن سيرة حياته: ذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً غير قليل منها.

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً، قال: «فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم. ولما أكملت أربع عشرة سنة أخذت في تعلم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم. ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين، فاني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين». أما ابن القفطي فيقول «وكان في أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين. ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه، وسار ذكره، وصنف كتباً لم تكن غاية في بابها، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة. فاما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة».

على أنه إذا اعتبره ابن أبي أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطبية، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة. أما في الفلسفة والأدب فلا تجد سبيلا إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته. رغماً عما يذكره عن نفسه في قوله: «وأما الأشياء التي أتنزه فيها فلأني فرضت نزهتي ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقتصر منها على ما أنصه من ذلك: خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريذس، وكتب روفس وأريباسيوس وبولس، وكتاب الحاوي للرازي، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وماانتفع به فيه، والمربعة لبطليوس، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر وثامسطيوس ومحمد الفارابي وما انتفع به فيها؛ وما سوى ذلك إما أبيعه بأي ثمن اتفق، وإما أن أخزنه في صناديق، وبيعه أجود من خزنه»

وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الاسلامية اجمالا وتادية للواجب بينما فصّل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً.

لا حاجة لنا بايراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومي ووصفه لمحاسن ترتيب بيته، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبي أصيبعة):

«كان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده، فلما كان في بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر، ولاعرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ، و «تغير عقله في آخر عمره»، وكانت وفاة ابن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

يدل على تفانيه في حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس في منامه، قال:

« وقد كان عرض لى منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء فى عروق الرأس ففصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس فى النوم وقد أمرنى أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسيت مابك من الصداع ، وأمرنى أن أحجم القمحدوة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان »

هذا ما يكفى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، ونتجه الآن إلى المناظرة المشهورة التى قامت بينهما . قال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبى الفرج بن الطيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذ ابن بطلان ببغداد) وكذلك أيضاً على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه .

فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده اطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحرّ طبيعة الفرخ أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد ـ كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء ـ أن الفرخ أحر من الفروج ، ولكن اليبرودى الطبيب الدمشقى الذى قد درس مع ابن بطلان على أبى الفرج ابن الطيب كان عاياأطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرخ . فجمع ابن بطلان فى مقالته حججا يعضدبها رأى اليبرودى وينقض الرأى الصحيح « بقياس المتعلمين تطريقاً لهم ورياضة ... وبقياس العلماء أن يظهر فضلهم فى حلول الشكوك الغامضة . . . وبقياس المذعنين تبكيتا لهم وهجنة » ، وأورد فى آخرها واحداً وثمانين سؤالا تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الاجابة عنها

يظهر ان ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان فى رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعاياة ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطعن منه إلى أصول الجدل العلمى .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعا يذكر فيه المزايا التى لايخلو منها الطبيب الكامل ، قال : « وقد بين جالينوس ان الطبيب فيلسوف كامل ، وانه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب . والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل له العلم التعليمى والطبيعى والالهى والمنطقى ، فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال »

لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بانها لم تحتو الا هجاء وذما . فلم يستطع ابن بطلان ان يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً الى رد مفصل هو من أظرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه « المقالة المصرية » عرّجَ فيه عروجا علميا فائقا يقصد به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان فى المقدمة إلى خصمه بأنه إنما ألف كتابه هذا امتثالا لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، ان يجيبه بقلب طاهر نقى خال من درن الغضب ؛ « فثاميسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن ان البارىء تعالى فى الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم ان الله فى كل مكان أن تكون سيرته فى كل مكان كسيرة العامة فى الهياكل » . أما الفصل الأول فهو فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبولها للتعليم واحداً ، وهذا عكس مازعمه ابن رضوان الذى ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التى تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد فى الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمت فى تعليم المعلم ، وهى اشتراك الأسماء ، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط . . . وسقم النسخ ورداءة النقل . . . وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم » . والبيان السابع ينبنى على اجماع المفسرين أن فصلا من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيمس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثانى فهو فى أن الذى علم المطالب من الكتب علما

رديئا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها . والفصل الثالث فى أن اثبات الحق فى عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت فى عقله المحال . أما الفصل الرابع فهو فى أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابا من كتب القدماء ألا يقطعوا فى علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان وَمن بعدهم كل الوضوح . قال : « إن من عادة القدماء إذا وقفت عليهم المطالب ، ولاح لهم فيها تباين وتناقص ، أن يعودوا إلى التطلب ، ولا يتسرعوا إلى افساد المطلب . فان ارسطو بقى يرصد القوس الكائن عن القمر أ كثر عمره فما رآه إلا دفعتين ؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذى بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه . . . وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضا كاد يلفظ نفسه فيه . وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره فى العلم طلبا لدرك الحق . هذا والذى فى عقولهم مما بالفعل أ كثر مما بالقوة ، فان كنا وما بالقوة فينا أ كثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا . ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم فى المرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة » . ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وابقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه فى مسألة وصف التدبير المبرّد بمصر خلافاً لبغداد ، وحجته اختلاف الهواء . يقول فى خصائص بغداد : « بغداد بلد شمالى ليس بكدر الماء ، ولا يختلف الأهوية ، ولا تنقطع عنه الأمطار فى الشتاء ، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء ، ويجمد لكثرة البرد شطا دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه ، وتاتى فواكهها وأزهارها فى أوانها من فصول السنة ، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب ، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا فى الندرة . أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه ينبت الأذكياء ، قلما اختار أهله للنسل من جُلب من البلاد الجنوبية ، فلهذا أوجههم على الأ كثر يعض مشربة حمرة ، وأخلاقهم طاهرة ، وطباعهم كريمة ؛ ليست أرضها فى وهدة فتحرقها الشمس وتغرقها كثرة المياه وهى من أسباب العفونة نعم ، ولا فى غربها بحر ولا فى شرقها جبل فى سفحه مقبرة و تتراقى منها الأبخرة ، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة ، لكنها فى بسيط من الأرض مستو ، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع ، وأهلها مع هذه الخصال المعددة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج اليه أهل مصر وما والاها ، والمصريون محتاجون إلى أ كثر منه كثيراً . فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة . وإذا كان عذرى قد اتضح بادنى عناية ، وبان خطل من عجل فى تغليظى من غير ارتئاء ، فما ظن الشيخ باناس يجرون فى العالم مجرى الأنجم الزهر ، أبصارنا عند بصائرهم تجرى مجرى بصر الخفاش عند عيون العقبان فى ضوء النهار ، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذى منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فذوو العقول إلى اليوم فى ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره » .

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كابقراط وغيره من جهابذة الفن ، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى . يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان ؛ فلذلك ينبغى لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليما صحيحاً ولا يشيع ، عند الأحداث تخبط الاسكندرانيين فى تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة ، ومنهم اصطفن ومارينوس وجاسيوس وأركيلاوس وانقيلاوس وبلاذيوس ويحيى النحوى المنجد البطل المحب للتعب . ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية . وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليت شعرى كيف يذمهم فى عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا نصوصها » ، ثم يجىء الفصل الخامس فى مسائل مختلفة ، والفصل السادس فى تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التى قال فيها على سبيل المباهلة أن يساله ابن بطلان ألف مسالة ويساله هو مسألة واحدة . قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها فى المحاورة ، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية ؛ أما طريق ابن رضوان فهو – كما زعمه ابن بطلان – هجاء محض من غير وزن وقافية .

أما السب بقبح الخلقة الذى قد اجترأ ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باوفى الذكاء والفطانة ذاكراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس ؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

بنى الحسحاس ، وفى النهاية يستفتى ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلا : « لو أن رجلا استفتى بفتوى نسختها : ما يقول الشيخ وفقه الله فى رجل أسود اللون ، مضطرب الطبيعة والكون ، غليظ الشفتين ، منتشر المنخرين ، جاموسى الوجه ، بقرى العينين ، قليل الأنصاف ، محب المراء والخلاف ، قلق المشية جهر النغمة ، يفتينا فى ذلك مأجوراً من الله ، للزمه أن يفتى بما نسخته : الجواب ومن الله المعونة : النفس الفاضلة تابعة لأشرف كيفيات الهيولى فهى توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة ، وهذه المعددة هى اضدادهذه ، فالنفس التابعة لها غير فاضلة . وكتبه على بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة »

وبعدئذ يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان . فان المسئلة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تتلخص - قال - فى اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط ، كما أن الاختلاف بين أبى حنيفة من جهة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى فى نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف فى الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن لخص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان ، وينتهى بانذاره بحساب يوم القيامة « فسأطالبه فى الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء ، وحضرت الملائكة الكتبة ، وخرست الألسن الناطقة ، وشهدت القوارير الصامتة ، بدلالتها كأنها على الحالة الحاضرة ، وظهر الغلط ، واعترف الأطباء بالذى فرط ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... وليتحقق أن ... لنا موقف حساب ، ومجمع ثواب وعقاب ، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وإنهم ليسامحون الشيخ كما سامحته . . . ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين »

لم يتاخر ابن رضوان فى الرد على ابن بطلان مرتين . فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقض الصحيح لذلك الكتاب رجع الى أسلوبه الكريه المعتاد . أما الرد الأول فقد عجل تاليفه قبل لخصه كتاب ابن بطلان كله ؛ وأما الثانى ففيه تلخيص لكل ماجرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه ، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة الى مقاطعة ابن بطلان . يقول ابن رضوان فى آخره : « فهذا فيه كفاية فى ان تعجبوا من أمر هذا الرجل ، وتضحكوا منه وتتركوا مكالمته فيما تستانفونه منه ، ولا تلتفتوا إلى شىء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس ، فهو أبداً يهذر ويهذى فلا يستحق ان يرثى له ولا يرحم قط »

هذا غاية ما يسمح لى الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيبين الفيلسوفين . حاصل القول أن الخصمين مع كل مالاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما الى الفكرة اليونانية دينا شديدا

كانا به يعترفان ويفتخران ، يجتهدان فى التشبه بالعلماء الأقدمين ، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدنية البلاد الاسلامية فى القرن الخامس . هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية فى الشرق الأدنى قبل أن تسير الى الاضمحلال التدريجى حتى تلاشى . فان السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسى للناحية الشرقية من عالم الاسلام فحسب ، بل قاموا أيضا بتاييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التى يعتبرونها مخالفة لها ، فكان لعلوم القدماء حظ غير موفور ، لأن بعض المحافظين استمروا يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون فى إلباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء فى القرون المتأخرة من حين الى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال ، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين الى شكوك من دونهم . من هؤلاء الفيلسوف الاندلسى ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥) ، والجهبذ موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١) والطبيب المصرى ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧) مكتشف الدورة الرئوية للدم ؛ إلا انه للأسف بقى أولئك الأفاضل فى أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراؤهم ولم تنتشر ، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان من المعبرين عن الحركة العقلية العامة فى زمانهما التى اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما . لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمى الذى نشاهده ابتداء من القرن السادس ؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تاثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية فى كل نواحيها .

ومهما يكن من شىء فان ما تناولناه فى بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية فى بلاد الاسلام

يوسف شخت